هندسة الندم

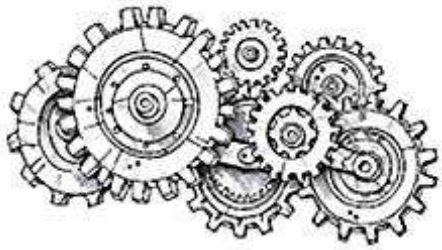

رواية من أدب التشويق و الخيال

د . غفار محمد

هندسة الندم ..

إهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،

ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..

إلى عشّاق الأدب الذين يمنحون اللغة حياةً أخرى..

وإلى مشجعي الكُتّاب الذين يرون في الحبر نورًا، لا حرفة

أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسّ

أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طنينًا أبعد من الورق،

وللحكاية عمرًا أطول من راويها ..

هندسة الندم ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل تشابه مع الواقع في الأسماء وكثير من الأماكن هو محض صدفة ..

هندسة الندم ..

المحتويات :

- الصوت الذي لا صدى له
  - المستقبلة
- عندما يتجمد الوقت
  - عبور العتبة
- القدم الرابعة
  - المتاهة
- القربان
  - مرآة بوجهين
- الممر الحلزوني
  - بلا ندم ... بلا روح
- أخوية النور المكسور
  - المختار الذي لا يختار
- زقاق الأقنعة
  - حلقة الظل
- إلى من خُدع ليوقظ الآخرين
  - شلال المشاعر
- عندما تتقاطع الأقدار
  - ترياق الندم
- تعميد الحبّ
  - نسبة الحب الذهبية
- قصة حياة ملحمية

الفصل الأول

الصوت الذي لا صدى له

كان صباحًا رماديًا قاتماً حين وصل **إلياس رافنر** إلى أطلال **دير سانت غيوم** المهجور، المتربّع كندبة حجرية وسط **تلال أوفيرن** الملتفّة كأفعى نائمة ..

الضباب كثيف، يزحف بين الأشجار كأنّ الطبيعة تحاول طمس الدير، ابتلاعه دون أثر، كما لو أنّه لا يستحق الظهور..

التلال من حوله كإكليل ، مغطاة بعشب باهت، تتخلّلها صخور داكنة كأنها انعكاس للغيوم المشردة الغاضبة في السماء فوقها ، والمكان ساكن إلى حدٍّ يثير القلق، كما لو أن الزمن توقّف هنا بإرادة خفية.

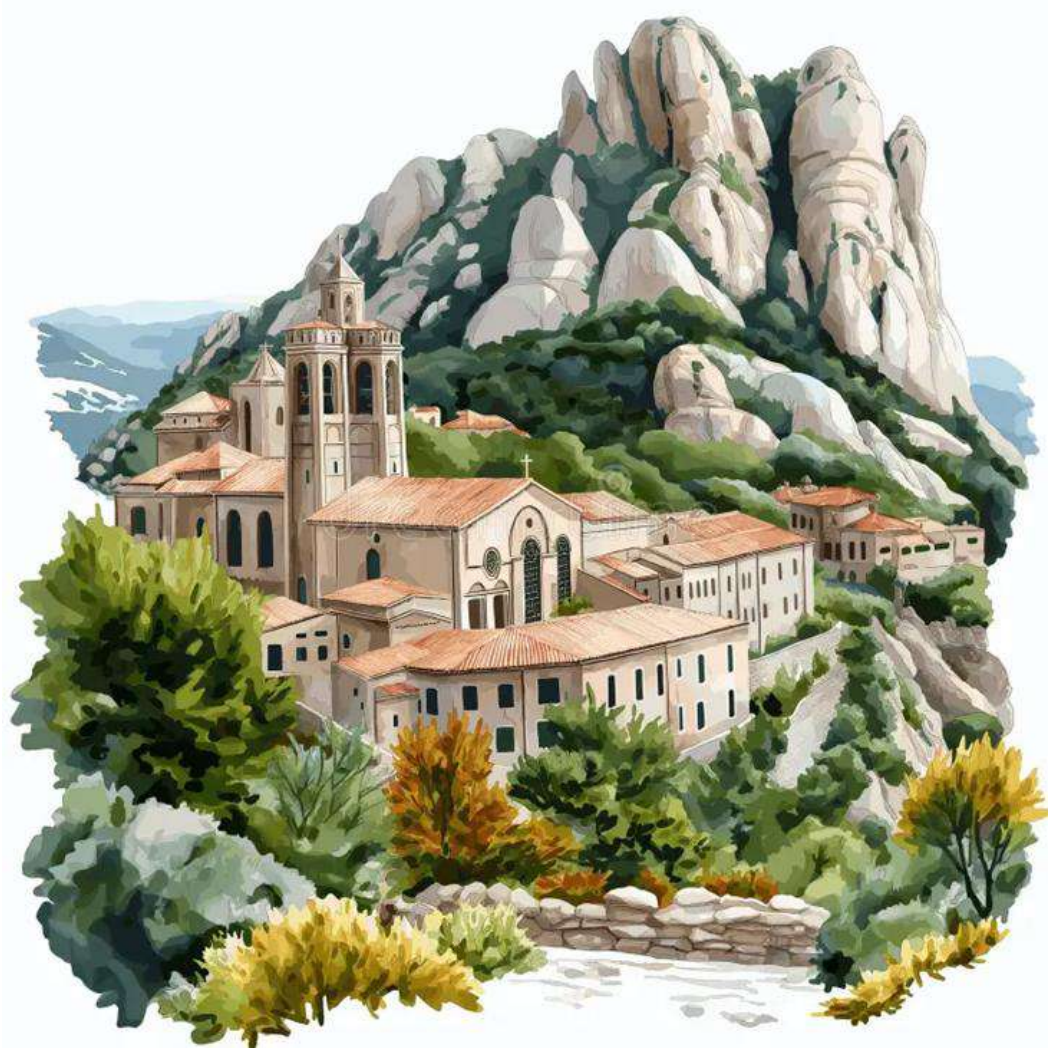

كان إلياس مرهقًا، لا من الطريق، بل من شيء أعمق .. في عينيه أثر تعب قديم، كما لو أنه يحمل في داخله وزر خطأ جسيم لم يُصحَّح .. لم يكن ينظر إلى المكان بعين مكتشِف، بل كمن يتوق إلى محو أثرٍ نفسي في أعماقه.

بدا الدير من بعيد كجثة حجرية عظيمة، ممدّدة بصمت ثقيل، تئنّ من وطأة قرونٍ سقطت من الذاكرة .. نوافذه المحطّمة كانت كعيونٍ خاوية، والجدران مغطاة بطبقة من الطحلب الكثيف، كأنّها تحاول حماية نفسها من النسيان أو من نظرات الغرباء.

وقف إلياس هناك، ببدلته العملية الملطّخة بالغبار، أشبه بجراحٍ يستعد لشق صدر مريض مات منذ زمن، وما زال قلبه ينبض بشيءٍ لا يُفسّر.. سترته رمادية قاتمة، مشقّقة عند الكتفين من كثرة التنقل، تتدلّى منها خيوط رفيعة ملوثة بالتراب .. حذاؤه الثقيل يترك آثارًا واضحة في الوحل، وعلى ظهره حقيبة تحمل أدوات المسح والحفر، مدفونة تحت طبقات من الصمت.

وجه إلياس أشبه بمخطوطة نجَت من الحريق، محفوفة بالأسرار، منقوشة بندوب الزمن وصمت التجارب التي لم يُفصح عنها و التي لا تعكس عمره الذي تجاوز الثلاثين بقليل ، عيناه رماديتان كضوء الفجر قبل أن يستفيق، لا تكشفان عن مكنونه بل تغويانك بالتأويل، كأن فيهما لغة أُخرى لا تُنطق .. و في خطوط وجهه المتقاطعة بين الحدة والرقة، يقيم تناقض ساحر، رجل يجر خلفه أزمنة من الأسى، لكنه لا

يزال يتشبث بخيطٍ رفيع من الرجاء لا يُرى إلا حين يبتسم.

لم يكن رجلًا يؤمن بالأسرار ، بنى تاريخه المهني على أرضية صلبة من الحقائق ، و بالنسبة إليه، كل شيء قابل للفهم، للترميم، للتفكيك ، لم يكن يكترث بالخرافات التي تتردّد في القرى المحيطة عن أصواتٍ تخرج ليلاً من تحت الأرض، عن أشباح رهبانٍ لم يُدفنوا، عن لعنات تعيش في الحجر..

ورغم منطقه الصارم هذا ، لم يكن بإمكانه الهرب من الإحساس بأن ما يفعله ليس مجرد بحث علمي .. هناك شيء شخصي في رحلته، شيء لم يخبر به أحدًا .. كأنه يبحث عن غرفة، لا ليكتشفها، بل ليختبئ فيها من أمرٍ ما تركه خلفه منذ سنين.

لهذا كان وحده هنا ، رفض أي مرافقة ، قد يظنه البعض يريد أن يكون أول من يضع قدميه في العدم، أن يكون الاكتشاف له وحده، كما يفعل العلماء في لحظات الجنون الأولى .. لكنه في الحقيقة يريد الانزواء بنفسه في مكان لم و لن يصل إليه أحد ..

السرداب لم يكن مدرجًا في أي مخطط حصل عليه من أرشيف **كنيسة كليرمون فيران** ، بل وجده مصادفة... لا علامات، لا درج، مجرد باب خشبي نصف مدفون تحت الحطام، كأن أحدًا ما، في زمن غابر، أراد أن يمحي وجوده للأبد.. الباب بلا لافتة، مائل قليلًا، وتفوح منه رائحة تراب رطب، كأن الرطوبة تسكن فيه منذ قرون.

أشعل قندبله ، وبدأ النزول عبر السلم الحجري، خطوةً بعد خطوة، وكل درجة تقوده نحو برودةٍ بدت وكأنها لا تنتمي لهذا العالم .. رائحة العفن والجلد المتفسخ تتسلّل إلى أنفه .. الجدران سوداء، ليست مطلية، بل محترقة من الداخل.

كل شيء في المكان كان يهمس بشيء مجهول ليس خوفاً ، بل توتر أولي، أشبه بذبذبة خفيفة قبل العاصفة.

كان يبحث عن الجدار الشمالي، وفق تقديراته، حيث يفترض

أن ينتهي السرداب لكنه لمح انبعاجًا طفيفًا... كأن الحجارة هناك لم تصمد أمام قوّة خفية.

رفع المعول و ضرب على الانبعاج ..

لم يكن الصوت صوت حجر يتحطم ، بل كان أقرب إلى أنين الفراغ ذاته، أنين شيء يستفيق.

انهارت قطعة من الجدار أرضاً ، تناثرت إلى غبار كثيف

خنقه، تراجع وهو يسعل و يضرب الهواء بكفّه ، وحين انقشع الضباب الحجري، ظهرت **بوابة حجرية** بارتفاع مترين، منحوتة بدقة لا تُشبه طراز أي قرن معروف ، مع رمز غريب يتوسّطها : **وردة داخل مثلث، داخل دائرة مفتوحة من الأعلى.**

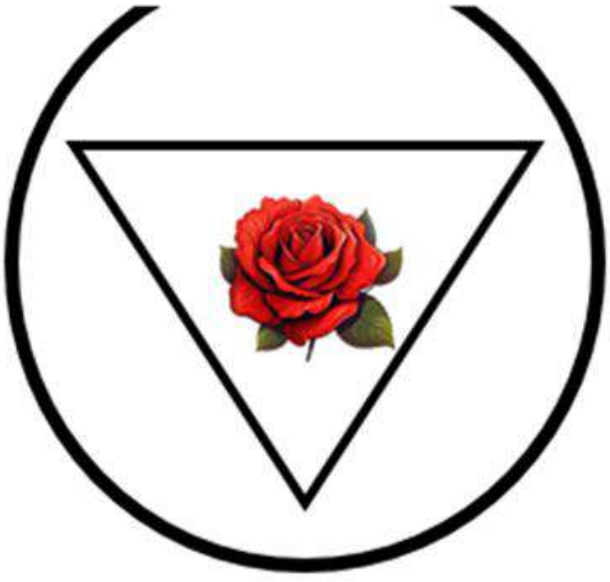

تقدّم و لامس الباب، فوجده غير مغلق بالكامل ، دفعه دفعة بسيطة... فانفتح .. بلا صرير و لا مقاومة ، كأنّ شيئًا خلفه كان ينتظر بصبر منذ قرون.

الغرفة خلف الباب لم تكن امتدادًا للسرداب، لم تكن حتى من هذا العالم !! جدرانها مصقولة، حجارتها سوداء لامعة بلا غبار، بلا عناكب ، بلا أثر لزمن و كأنه في قلب ثقب أسود فضائي توقف فيه الزمن كلياً .. لكن لا شيء يوحي بأن الغرفة مهجورة ، بل بدت وكأنها تتنفّس.. وفي منتصفها، على قاعدة رخامية، استقر **لوح معماري** واحد يوضح بنية هندسية ما .

اقترب إلياس بخطى بطيئة، كأنه يمشي على جلد مخلوق نائم ، كان اللوح غريبًا يجسد هيكلاً معمارياً من عالم آخر كما يبدو ... لا نوافذ، لا أبواب، لا هندسة مفهومة.. مجرد غرف متداخلة، بزوايا غير منطقية، كأن الرسم يُخالف قوانين الجاذبية والمنطق في آنٍ معًا.

شعر بوخز خفيف في صدره لا تفسير له .. كأن اللوح الحجري يلمس في داخله شيئًا لم يتوقف يومًا عن التألم..

لقد شعر أن اللوح يخصه هو بالذات .. !!

مدّ يده و لمس الخطوط التي تضيء بخفوت غامض .. لم يكن حبرًا بل مادة غريبة، فوسفورية ربما أو عضوية ؟ شيء لم يعرفه من قبل.

ثم قر أ:

أخوية النور المكسور

الجناح الوردي

النسخة الأولى من جهاز تفريغ الندم البشري ..

جهاز؟

تفريغ ندم؟

تجمّد في مكانه.. لم يفهم .. بل ربما لم يُرِد أن يفهم.

لكن قلبه أصبح أثقل ، كأن ذكرى لم يعشها بدأت تتحرّك بداخله.. شعور بالذنب .. بالندم... بلا ماضٍ .. و بلا سبب.

تراجع خطوة للوراء بشكل غريزي ، لكن الغرفة تغيّرت.

الضوء تغيّر.. الهواء تغيّر.. ولم يعد وحده فيها كما أراد ..

شقوق من ضوء بدأت تتسلل من الجدران... خطوط ناعمة تتوسّع ببطء، كأن الجدران تتنفس.. ثم انطفأ القنديل في يده وصدر صوت غريب و مبهم ..

صوت بلا صدى ..

صوت بلا اتجاه ..

صوت لا يُقال... بل يُشعرو حسب .

همسٌ لا يُفهم، لكن يقتحم القلب.

ارتجّ قلب إلياس في صمت الغرفة المهيب.

وكان ذلك الصوت ـــ كما سيفهم لاحقًا ـــ هو صوت الانكسار في أعماقه .

لحظة تحوّل فيها الزمن من خطٍ إلى دائرة بلا بداية أو نهاية.
من معرفة مستقيمة إلى دوامة ندم لا ينتهي !!.

الفصل الثاني

المستقبلة

كان الليل خفيفًا كخيط دخان حين استيقظت **نور** فزِعة، تتصبب عرقًا رغم برودة الغرفة.

مرة أخرى ، **الحلم** ذاته !! لكن هذه المرة، كان أكثر وضوحًا و وجعًا.

فتاة تشبهها وهي طفلة إلى حدٍّ مؤلم ، تمشي في ممرٍّ حجري طويل جدرانه مغطاة بنقوش تتغيّر كلما نظرت إليها، وكأنها تتنفس .. لم تكن تلك النقوش موجودة لتُقرأ، بل لتحسّ، كأن كل رمز يرسل رعشة عاطفية من زمنٍ سحيق .. الضوء كان خافتًا ينبض كقلبٍ ضعيف، ورائحة بخور خفيفة تتسلل إلى أنفها .. الأرض ، رغم أنها حجرية، بدت دافئة تحت قدميها العاريتين ، والظل، ذلك الكائن الذي لا يمشي بل يزحف كالضباب، كان يصدر همسات لا تُفهم لكنها تلهم ، تخدش شيئًا دفينًا في أعماق الروح.

ثم جاء صوت من بعيد .. لم يتسمعه بل شعرت به ، وكأن اللاوعي ذاته نطق :

نحن ننتظر من يقتل الندم

فتحت عينيها ببطء و كأنها أصيبت بالشلل، وبدلًا من أن تنهض فورًا، بقيت مستلقية، تحدق في السقف العاري لشقتها الباريسية.. في الأجواء ، كان صوت قطرات الماء من الصنبور يتناغم مع سكون الليل .. نور القمر كان مائلًا على زجاج النافذة، يرسم ظلًّا ناعمًا على الأرض .. الهواء بارد، يتسلل من شقوق النافذة القديمة .. ارتجفت يدها، قلبها ينبض كطبولٍ في صدرها .. نهضت ببطء، مشت حافية على

الأرض الباردة .. فتحت النافذة واستنشقت الهواء البارد بعمق، و كأنها تريد لحلمها أن يستيقظ .. لكنها نسيت نصفه فجأة، كأنّ هناك مَن سرقه من ذهنها في اللحظة الأخيرة.

في ركن الغرفة، جهاز تسجيل الذكريات الحسية الحديث يومض بخفوت .. أوقفته منذ أسابيع، لكنّه يسجّل تلقائيًا إن كانت الموجات العاطفية كثيفة بما يكفي ..

مشت حتى الجهاز، قرأت السطر الأول :

{ **التسجيل** 02:13 صباحًا – **تصنيف**: ندم مركّز – **المصدر**: داخلي غير واعٍ }

أغلقت الجهاز بيدٍ لا تزال ترتجف ..

لقد بدأت ترى هذه الأحلام منذ كانت في العاشرة.. في البداية، قالت لها والدتها إن لديها خيالًا سينمائيًا .. ثم قيل إنه ضغط دراسي.

و بسببه درست علم النفس لاحقاً، ثم احترفت الغوص العاطفي العلاجي، لأنها عرفت أن ما فيها ... ليس طبيعيًا.

نور كانت (**مُستقبِلة**) ..

لم تفهم تمامًا معنى المصطلح حتى التقت **بالدكتور شافر**، الذي كان يعمل على أطروحة غريبة عن **الصدى العاطفي المعماري** .. شرح لها كيف أن بعض الأشخاص يولدون بجهاز عصبي قادر على التقاط مشاعر متبقية في أماكن معيّنة .. الحزن في سرير، الغضب في جدار، الحب في رائحة مكان.

لكن نور كانت أكثر من ذلك .. كانت قادرة على **استعادة التصميم العاطفي للمكان** ..

تتذكّر أول مرة شعرت بذلك ، كانت في كاتدرائية مهجورة في **مرسيليا**، تمشي وحدها، حين جثت فجأة على الأرض وبكت، شعرت بحزن امرأة لم تكن تعرفها، لكنها بكت هناك قبل قرن .. ثم، في إحدى الجلسات، دخل معها عميل منزلًا فقد فيه زوجته، وكانت قادرة على استرجاع لحظات حبهما، صوتهما، عناقها الأخير، وكأنها تعيد لها الحياة لدقيقة واحدة.

ورغم أنها ساعدت العشرات في جلسات علاجية داخل منازلهم أو في أماكن فقدوا فيها أحباءهم، لم تجد يومًا مكانًا

يناديها كما يفعل هذا الحلم الغريب ..

نور ألبير حداد : شابة حياتها تودع العشرينيات عما قريب .. ملامحها تنتمي لعصر لا نعرفه، كأنها خرجت من فسيفساء بيزنطية نسي الزمن أن يمحوها، بوجه بيضوي يفيض بهدوء يشبه ضوء القمر حين ينساب على سطح ماء ساكن.

عيناها بلون البندق المشتعل، لا تنظران بل تغمران، كأنهما تبحثان في من يقابلهما عن ظلّ فكرة ضائعة أو حنين قديم.
وفي ابتسامتها ارتجافة نادرة بين الحنان والوجع، توحي بأن هذه المرأة لم تعش فقط، بل عبرت خلال النار ولم تُخبر أحداً.

وُلدت في **الإسكندرية**، على مقربة من البحر، في مساءٍ شتويّ تُعانق فيه الأمواج شرفات البيوت القديمة .. كانت الطفلة الأولى **لألبير حداد** ، أستاذ الفلسفة المعروف في جامعة الإسكندرية، و **ريم عبد الغني**، عازفة كمان عُرفت بين أوساط النخبة الموسيقية بطاقتها الصوفية في العزف.

نشأت نور في بيتٍ يمتلئ بالكتب، والموسيقى، والأسئلة التي لا إجابة لها .. كان والدها يُحب أن يقرأ لها قبل النوم لنيتشه وكأنها حكايات ما قبل الغفوة ، وكانت والدتها تعلّمها كيف تصغي إلى الصمت بين النغمات.

أصولها كانت مزيجًا نادرًا : والدها ينحدر من **أُسرة دمشقية** عريقة هاجرت إلى مصر في أوائل القرن العشرين، أما والدتها فتنتمي إلى **جذور نوبية** من الجنوب، حيث كانت الجدة تحكي قصصًا عن أرواح النيل وأسرار الرمال.

لكن عالم نور المثالي تحطّم مبكرًا.. حين كانت في الحادية عشرة، اختفى والدها في ظروفٍ غامضة، قيل إنه غادر البلاد بسبب تحقيقات سياسية، لكن شيئًا ما في قلبها رفض تلك الرواية .. بعد عامين فقط، توفيت والدتها بنوبة قلبية مفاجئة، تاركة نور وحدها في منزلٍ امتلأ بالذكريات التي لا تُطاق.

أُرسلت للعيش في **فرنسا** مع خالٍ لها بالكاد تعرفه، في بيتٍ لا يشبه ما اعتادته، بلا موسيقى، ولا كتب، فقط جدران صامتة وسقف منخفض من الحذر والريبة.. هناك، بدأت نور تتعلّم شيئًا آخر: **أن القوة لا تأتي من الصراخ، بل من**

الصمت الذي يعرف متى ينفجر.

كبرت نور وهي تبحث عن الحقيقة.. ليس حقيقة والدها فقط،

بل حقيقتها هي، أصولها، جذورها، ولماذا خُلقت وهي تحمل كل هذا الضوء في اسمها ... بينما العالم من حولها لا يتوقف عن الانطفاء.

أما اليوم، ثمة شيء تغيّر عن روتينها المعتاد ..

فبينما كانت تجلس على كرسي قديم قرب النافذة، تلفّ نفسها بوشاح والدتها، لاحظت رسالة في بريدها الإلكتروني .. عنوانها مشفّر:

ani3s@ordo-lux.fr

شيء فيه جعل قلبها يرتبك ، لم ترسله أي جهة رسمية، ولا يبدو كبريد عشوائي .. تردّدت في فتحه في البدء .. ثم استجمعت جرأتها و فتحته ، قرأته بدهشة :

ما تحلمين به ليس وهماً .

ما تتذكرينه، تتذكرينه لأنك جزء من ذلك .

الوردة تبكي دماً .

دير سانت غيوم – أوفيرن – فرنسا .

هنا بدأت الحكاية

أعادتها ثلاث مرات.. لم تفهم بالضبط ما تعنيه .. لكن الأكيد

أنها تقصدها شخصياً ..

من المرسل ؟ ماذا يريد منها ؟ و هل للرسالة تتمة ؟!

تعرّق كفّاها، تسارع نبضها، و لاحت في عينيها لمعة خاطفة لا تدري إن كانت خوفًا أم حنينًا..

فتحت دفتر ملاحظاتها بلاوعي ، كمن يمد يده في الظلام، لتدوّن نص الرسالة و حسب .

لكن الصفحة التي انبثقت أمامها لم تكن عادية : وردة باكية، يتقاطر من بتلاتها ندى بلون الدم.

تأملت الرسم بدهشة مرتعشة !!

لا تذكر متى رسمته، ولا أين، ولا في أي شتاء من ذاكرتها نبتت تلك الوردة ؟!

نسيانٌ أم إنكار؟ أم أن جزءًا منها رسم والجزء الآخر أنكر لحظة الولادة ؟

امتدت في أعماقها موجة ارتباك مباغتة، كأن الرسم استخرج من داخلها شيئًا كان دفينًا .. شيئًا لم تكن تبحث عنه، بل كانت تهرب منه.

سلامها الداخلي، ذاك السلام الذي لطالما طاردته كحلمٍ بعيد، تشظّى في لحظة.

شعرت بندمٍ صامت، لاذع، لأنها فتحت ذلك البريد، وكأنها فتحت فوهة بئر و الفضول متربص كي يدفعها إلى قاعه ..

وهنا، اجتاحت ذاكرتها عبارة كان والدها يكررها باستمرار أمامها، كأنها تُقال لأول مرة :

الندم، يا نور، هو الباب الوحيد الذي إن فُتح لا يُغلق إلا و قد جرّ خلفه عواقب الكارما .. لذا اندمي دوماً على ما هو جميل و لم يحدث كي يعود إليك بوجه جميل

بحدس غريزي، حاولت أن تُغلق الباب .. أن تُنهي السيناريو قبل أن يتمدد ككابوس.

قررت تجاهل البريد، ودفن الحلم الغريب الذي زارها مجددًا كعادته في لياليها الهاربة من الوحدة إلى الوحدة .

نهضت لتلتحق بيومها، بروتينها، بوجهها الذي يعرفه

المرضى في العيادة أكثر مما تعرفه هي.

لكنها لم تكن تعلم...

أن الباب قد فُتح بالفعل.

و أن إغلاقه لم يعد خيارًا.

و أن ما خلفه ليس حلمًا سريالياً هذه المرة ، بل واقعًا يفوق في غرابته كل ما حاكه لا وعيها من صور .. خلفه أبوابٌ أخرى، تنتظرها كأفواهٍ جائعة مستعدة للافتراس.

الفصل الثالث

عندما يتجمد الوقت

وقف إلياس على شرفة الغرفة التي استأجرها في قرية **سانت فالييه** ، تلك البلدة الحجرية الصامتة التي تتدلى من تلال أوفيرن كأنها بقيت معلّقة بين القرون ..

كان الهواء هناك يحمل طعم الطين الرطب، ورائحة الخشب المعتّق، تتداخل مع نكهة دخان مواقد بعيدة.

الضباب يغزو الأزقة الحجرية كيد عجوز تفتش عن أسرار تركها الزمن خلفه ..

المطر الخفيف ينقر السقف القرميدي بإيقاع مريب، تمامًا كذاك الذي اعتاد سماعه في طفولته، حين كان يصغي إلى قطرات الماء تضرب نافذة منزل جدته، قبل وفاتها و يخيّل إليه أن السماء تبكي ندماً لا تفسير له..

ذلك الصوت عاد إليه الآن، مشوشًا، كأنه ليس في الخارج بل داخل جمجمته.

لم تكن القرية تنبض بالحياة .. لا أطفال في الطرقات، لا حديث في المقاهي .. فقط صرير الأبواب القديمة حين تهزّها الريح، وخطى شبحية لا يُعرف لمن تعود.

لكن الياس لم يعد كما كان ..

أعماقه أمست أشبه بقريته الباردة ..

كل شيء فيه تغيّر منذ دخل الدير... لكن بصمت.

لا صوت داخلي يشرح ما شعر به في تلك الغرفة السوداء، بل ضياعٌ غريب، و كأنّ جزءًا من وعيه قد تبخّر.

حين فتح دفتر ملاحظاته، لم يجد خطه المعتاد .. بل رموزاً هندسية صغيرة : دوائر داخل مستطيلات، نقاط سوداء على محاور غير مألوفة، خطوط تنحني ثم تتلاشى.

وبين الصفحات، نقشت جملة على الهامش بخط مختلف :

المشاعر كالهندسة ، كلاهما يسعى للتوازن .. لكن أحدهما بالقلب ، و الآخر بالعقل

شعر بدوخة من فرط التفكير .. أغلق الدفتر بعنف.

(هذا جنون) ، قال لنفسه.

لكنه كان يعلم ـــ في أعماقه ـــ أن شيئًا ما قد بدأ يتغير بالفعل .

في اليوم التالي، قصد **أرشيف بلدية كليرمون- فيران** ليبحث أكثر عن قصة الدير .. من بناه ؟ .. السرداب المخفي ..

الغرفة السرية ..

كان المبنى يشبه مقبرة أوراق .. الجدران مشققة، والهواء يعبق بالغبار والأحبار القديمة .. الموظف خلف الطاولة الخشبية لم يكن يتحدث كثيرًا، لكنه حين لمح اسم دير سانت غيوم في استمارة البحث، رفع نظره بتثاقل وقال بصوت خافت :

= بعض الأبواب يجب ألا تُفتح ..

لم يعلق إلياس ، أغمض عينيه للحظة، ثم تابع البحث.

وسط الملفات المتآكلة، وجد مخطوطة تعود للقرن السابع عشر، كتبها راهب مجهول تنص على :

في أجنحة الدير القديم، حيث صمت الأحجار أبلغ من الترانيم، تم دفن الندم البشري في هيكل لا يتنفس. وحدها الروح التي لا تخاف الانكسار، تستطيع إعادة فتح الباب

قلب الصفحة ، فوجد صورة باهتة مرسومة بالحبر الأسود :

وردة داخل مثلث داخل دائرة مفتوحة من أعلاها ..

الرمز نفسه الذي رآه على باب الغرفة السرّية !!

تسارعت ضربات قلبه كعداء إفريقي .. تابع البحث فعثرت عليه مخطوطة ثانية من أربعينيات القرن التاسع عشر مكتوبة بحبر باهت يكاد يتلاشى :

التجربة الرابعة فشلت.. الجسم لم يتحمّل ضغط الندم، والعقل تمزّق عند العتبة ..

هزّ رأسه بدهشة عارمة ..

ما معنى كل هذا بحق السماء ؟!

أتى يسعى إلى أجوبة .. فعاد محملاً بمزيدٍ من الأسئلة !!

في تلك الليلة، حلم إلياس بشيء سريالي لم يحلم به من قبل : كان في غرفة مدورة حجرية ، جدرانها مائلة مع انحناءات متكررة بنمط غريب .. الأرضية من الماء، والسماء من نار.

رأى طفلًا يجلس على كرسي معدني بارد للغاية في وسط الغرفة ، يبكي، وإلى جانبه امرأة تبتعد عنه شيئاً فشيئاً .

اقترب منهما.

رفع الطفل رأسه...

كان هو .. الياس نفسه !!.

وفي لحظة، تحوّلت الغرفة إلى حديقة يابسة، ثم كنيسة مقلوبة، المذبح فيها تحت الأرض، والنوافذ تطل على العدم.

استيقظ يتنفس بالكاد و كأن صدره غارق في المياه .

هل كان ذلك حلمًا ؟ نبوءة ؟ ذكرى من مكان لا يُعرف إن كان حقيقيًا ؟

و منذ ذلك الحلم بدأ شيء أقرب إلى الهوس يتسلل إليه :

يحاول رسم الغرفة التي عثر عليها في الدير من الذاكرة مراراً و تكراراً ، لكنها تتغير كل مرة يحاول تذكرها على نحو مبهم و مخيف .

(هي ليست غرفة ، همس ذات مساء.)

(إنها أقرب لأن تكون فكرة .. لكن مجسّدة)

في اليوم الثامن بعد عودته من الدير ، وصله طرد بلا مرسل. علبة خشبية صغيرة، داخلها ظرف ببطاقة سوداء أنيقة مكتوب عليها :

إذا أردت أن تفهم ماوراء الباب الذي فتحته

، تعال إلى إنجيه .. فندق أوليفيه .

13 يوليو، منتصف الليل

A.G

رسالة غريبة ، غير متوقعة و مخيفة .. بلا هوية ، فقط وُقعت بأول حرفين من اسم و كنية لا يعرفهما.

لكنه لم يتردد في قراراه للحظة ..

سأذهب ..

شعور طاغٍ في أعماقه يجذبه لقبول الدعوة فالأسئلة في عقله تكاد ترديه قتيلاً و كل شيء من حوله بات غامضاً ..

****

استيقظ إلياس في الفندق المذكور **بمدينة أنجيه الفرنسية**. لم يكن يتذكر تمامًا متى غادر أوفيرن، ولا كيف وصل إلى هنا و كأن تلك الفترة الزمنية محيت من ذاكرته بطريقة ما ..
الورقة الوحيدة في جيبه حملت رمزين :

7:13 و **A.G** و هما تاريخ الدعوة و حروف اسم المرسل.

كان موعد منتصف الليل قد اقترب ، نظر في ساعته.. كانت تشير إلى **7:13** ، تفاجأ أنها متوقفة منذ دخل الفندق ، متوقفة عند تاريخ اليوم ، فهل هذه غمزة من السماء كما اعتاد منها بأنه تاريخ هام ، أم أنها مجرد صدفة عشوائية .

في ردهة الفندق، علّقت ساعة حائط قديمة، تشير هي أيضًا

إلى **7:13** فارتاع قليلاً ، و شعر بنفسه كأنه سجين داخل لوحة لسلفادور دالي ..

وحين سأل موظف الاستقبال عن الوقت، أجابه الرجل بابتسامة باهتة :

= الوقت هنا لا يهم كثيراً سيدي .. المهم هو المشاعر ..

في تلك اللحظة، دخلت امرأة القاعة.. حضور طاغٍ ، أناقة سوداء.. ملامح قاسية .. عيناها تحملان تهديد الطغاة و تسلط المستبدين .. شعرها الأشقر كالذهب ينسدل على كتفيها، وعطرها فيه شيء من الزنبق المحترق.

تقدّمت من إلياس مباشرة وقالت دون مقدمات :

= سيد الياس رافنر ..

تجمّد في مكانه ..

= نعم و من أنت ؟

= أنيا غروسنر .. أنت لا تعرف ما الذي فتحته هناك ..

مشت بثقة نحو طاولة في الزاوية و هو يتبعها بدون تفكير كالمنوم مغناطيسياً ، مصعوقاً من جملتها الأخيرة .. ثم جلسا ، وبدأت تشرح :

= ما اكتشفه في سرداب الدير هو مدخل فرعي لنظام قديم يُعرف باسم **هندسة الندم** صممته **أخوية النور المكسور**. هذه الأخوية ليست طائفة، بل تحالف سري من علماء وفلاسفة ونادمين سعوا لتصميم جهاز **تفريغ الندم** ، إنه ليس لمحو الذنب، بل لإعادة توزيع تبعاته عبر الزمن .

صمتت قليلاً وسط دهشته ثم أردفت :

= الندم هو الجذر الأول للخراب... سعوا عبر الزمن لتحويله إلى طاقة، إلى معادلة، إلى شيء يمكن تفريغه... لكنهم فشلوا مرارًا و تكراراً ، لكن إن نجحوا ذات يوم و اختفى الندم من الوجود ستحل السعادة على الجميع و تتطور الحياة كمتوالية هندسية تهرول على عداد السنين ، و نحن في الأخوية نسعى لإنجاز ذلك ..

ابتلع كلماتها دون أن يمضغها فقد كان مشوشاً حتى الثمالة ثم تمالك نفسه و قال :

= و ما الذي تريدينه مني ؟

ابتسمت بغموض ..

= هل تتذكّر ما حدث بين **11 و12** يوليو؟ أو من هو الرجل ذو العين الزجاجية الذي التقيته في طريقك إلى أنجيه ؟

ارتجف الياس .. لا يتذكّر شيئاً من هذا .. لكنه رأى صورًا عابرة في ذهنه.. رجل مبتسم يقلب ساعة رملية .. امرأة تمشي على سطح بحيرة ..ثم هزّ رأسه ..

= لا أعرف عما تتحدثين !!

= تماماً .. أنت دخلت جهاز تفريغ الندم بالفعل في الدير ذاك اليوم ، لكنك لم تخرج منه بالمطلق فأنت لا زلت هناك ..

شعر إلياس بارتجاف أكبر..

= هل تقصدين ... أنني أعيش داخل وهم الآن؟

نظرت إليه أنيا بعينين صارمتين وقالت :

= ليس تماماً .. لنقل أنك عالق الآن بين خيارين على شفير شعور ممزق من الندم ... إذ ستكون أنت السبب في كل ما سيحدث لاحقاً للبشرية ، سواء كسلام حسي أو كمذبحة شعورية ..

صمتت قليلاً ثم تابعت بكلمات أشبه بحقن سامة :

= لو كنت مكانك لشعرت بندم هائل .. كان خطأ جسيماً أن تدخل السرداب و تعثر على تلك الغرفة السريّة .. فضولك الزائد قد يتسبب بضياعك ، بل ربما بفناء البشرية ..

نهضت بثقة و ثبات دون أية إضافات ثم غادرت بدون تفسير لما قالته ، تاركةً الياس في حيرة و ذهول ..

في الساحة المهجورة خارج الفندق، دقّت ساعة المدينة نغمة ميتافيزيقية عند الرقم **7:13**... وقتٌ لا ينتمي إلى زمن، ولا تُدركه عقاربُ توقفت كأنها شهقت عند حدود اللحظة.

الزمن لم يتوقف، بل انكسر.

وهناك، وسط هذا الانكسار، كان إلياس واقفًا... لا كمن يتأمل مصيره، بل كمن استُدرج إليه.

لم يُختَرْ، بل دُفع — بقوة لا اسم لها — إلى مفترق لم يصنعه بيديه، ومع ذلك، ها هو يُحاسَب عليه وحده.

هل كان الأمر قَدَرًا؟

أم أن الفضول، ذاك الحريق الناعم، هو من أوقعه في شِركٍ لا يرى حدوده ؟

كان يبحث عن ملاذٍ يقيه من ظلال ماضيه، فإذا به يعثر على هوّة تسكن جسده ذاته... مكان لم يكن مختبئًا في الجدران، بل في الأنسجة، في الذاكرة، في ما لا يُقال.

وسواء أكان القدر هو الفاعل، أم فضوله الذي لم ينم منذ الطفولة، فقد حدث ما لا عودة منه...

لقد فتح بابًا لم يُفترض أن يُفتح، بابًا لا يقود إلى أسرارٍ فقط، بل إلى إعصارٍ داخلي، كما قالت له تلك المرأة الألفا ذات الصوت الأشبه بنبوءة تحذيرية من زمن غامض.

فهل يمكنه التراجع الآن؟

أم أن الكائن الهارب بداخله ـــ ذاك الذي ظنه ماضيًا ـــ قد أفلت، يعدو حافيًا، ويضحك كسايكوباثي ؟

في داخله، في تلك التربة النفسية التي نُقعَت بندم قديم منذ أول انكسار له كطفل، زُرعت بذرة ندم جديدة...

لكن هذه المرة، لم تكن بذرة فقط، بل بداية شجرة سامة ستمتد بجذورها في كل قرار يتخذه من الآن فصاعدًا.

الفصل الرابع

عبور العتبة

كان الهواء في عيادة نور مشبعًا برائحة الكتب القديمة والشموع المعطرة، ذلك المزيج الغريب الذي يبعث الطمأنينة والقلق معًا.. صوت بعيد لعجلات سيارة تمر فوق حجارة الشارع، خافتًا كصوت ذاكرة تتنفس .. الجدران ناعمة وباردة، ملمسها يشبه جلد جرح لم يندمل .. على طاولة جانبية، شمعة عتيقة تحترق ببطء، تُصدر أزيزًا كأنها تهمس بقصة من زمن آخر ، كتقليد ثابت في حياة نور.

في الخلف مكتبة زجاجية تخزن كتبًا طبية و روحانية و فلسفية ومذكرات منسية.. الضوء ينعكس على زجاجها، فتبدو وكأن الكتب تراقبها.. على سطح المكتب، ساعة نحاسية صغيرة، ورثتها عن والدها كانت قد توقفت مرة عند الساعة **7:13** في صباح مكفهر... ثم عادت للعمل وحدها .. لم تنسَ تلك اللحظة، ولا ما تلاها.

نظرت إلى الصورة القديمة المعلقة في زاوية الجدار، إطارها المائل أزعج عينيها فعدلته بأناملها .. وجه أمها يبتسم لها كالعادة .. تهاطلت عليها الذكريات و شعرت بانقباض خفيف، كأنّ ماضيها مرّ من هناك للحظة و لمحها.

اتجهت إلى كرسيها الجلدي الداكن و جلست لتبدأ بعملها ..

لم تكن نور معالجة نفسية فقط ، كانت تقرأ ما بين الكلمات، وتتلمس ندوبًا لا تظهر على الجلد.

أخذت تُقلب ملفات مرضاها بصمت، لكن ذهنها كان في مكان آخر بعد أن فاجأها آخر مريض بسؤال عن هندسة المشاعر التي قرأ عنها .. قصتها مع هندسة الندم كانت قد

بدأت منذ سنوات، حين سمعت بها أول مرة في ندوة سرية داخل المعهد الأوروبي للتحليل السلوكي .. كانوا يتحدثون عنها كأنها خرافة... أو تهديد.

ماذا لو أمكننا إعادة تشكيل مشاعر الندم ؟

هكذا سأل أحدهم يومها .. لم تنسَ العبارة.

ورغم أنها لم تخض في ذلك المجال عمليًا، إلا أن الفضول بدأ يتسلل إلى عملها اليومي .. لم تعد الجلسات بالنسبة لها مجرد استماع ، بل محاولات دقيقة لرسم خريطة ندم كل مريض، لمعرفة متى بدأ، وكيف تغيّر، وكيف يمكن - نظريًا - إعادة هندسته دون أن يفقد الإنسان إنسانيته.

أحيانًا، كانت تتساءل إن كان ما تفعله نوعًا مبطنًا من تلك الهندسة .. أكانت تتلاعب بالندم فعلًا؟ أم أنها فقط تُعيد تأطيره في ذهن المريض؟

اقتحم ذاكرتها فجأة بدون دعوة مريض قديم " **لوثر** " ، و في لمحة أقرب إلى الحلم ، انكمشت ذاكرتها على وجهه. لوثر .. المريض الذي كان يضحك بصوت عالٍ ثم يجهش بالبكاء بعدها بثوانٍ .. آخر جلسة بينهما، أخبرها عن شعور " **العجز النفسي** "... حيث أنه يسمع باستمرار صوت نفسه وهو يسقط من شاهق دون أن يستطيع إنقاذها .. حتى نهشه الندم و الذنب حياً.. بعد أسبوع، أُبلغت بأنه قفز من شرفة شقته، تاركًا ورقة بيضاء عليها رمزان مرسومان بقلم أزرق : وردة ومثلث.

حاولت طي الذكرى بعد ذلك ، لكنها كانت تعود في كل مرة تفتح فيها ملفاً جديداً... أو تُشعل شمعةً في الظلام ..

****

في ذاك المساء، وبينما كانت تكتب يومياتها ، كتبت و هي شاردة جملة خطرت على بالها بدون وعي :

الندم ليس شعورًا، بل هندسة داخلية للزمن

حدّقت في الكلمات طويلًا.. شيء ما تجهله كان يتغير في أعماقها ، ببطء نعم .. لكن بثبات.

أغلقت دفتر الملاحظات واستعدت للخروج لزيارة صديقتها حين لمحت إشعارًا جديدًا على شاشة حاسوبها المحمول .. بريد إلكتروني آخر مجهول المصدر، عنوانه فقط :

هل ترغبين في معرفة الحقيقة ؟

ترددت قبل فتحه.. لكنّ شيئاً في العنوان بدا وكأنه موجه لها شخصياً هذه المرة أيضاً ، فهل هو نفس المرسل ؟!

لم تتمكن من كبح فضولها ضغطت على الرسالة، لتجد ما يلي :

د. نور حداد

لقد لاحظنا اهتمامك المتزايد بما يُعرف بهندسة الندم

إن كنتِ ترغبين في معرفة المزيد، فتعالي إلى هذا

العنوان في إسطنبول خلال سبعة أيام:

حي فاتح، شارع شريف باشا، الباب الأزرق بدون رقم.

الساعة 7:13 مساءً

لا تُخبري أحدًا .

ملاحظة: نعلم أنك كنتِ تفكرين اليوم في إعادة فتح ملف مريضك لوثر الذي انتحر عام 2018 ..

نعلم أيضًا أنك تكتبين ملاحظات بخط يدك ثم تحرقينها، وتحتفظين بالرماد في علبة شاي قديمة خلف الكتب النفسية .

لا تخافي .. لكن لا تتجاهلي ..

ملامحها تجمّدت بدون أدنى رمشة ، كما لو أن الزمن تجمد ثم اكمش على ذاته ..

كيف يمكن لأحدٍ أن يعرف ؟

تفاصيل كتلك لم تخبر بها أحدًا قط.

لا أحد يعرف... لا أحد !

كانت الرسالة مختلفة هذه المرة .. ليست كالسابقة، ليست مجرد كلمات مبهمة أو فضول عابر.

بل كانت موجّهة إليها هي، بالاسم، بالجرح، بالذاكرة.

كأن من كتبها قرأ فصول حياتها السرية، وعرف ما لا يُقال، وما دفنته في عمقها طويلاً.

شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، مزيج من الخوف والدهشة.

مدّت يدها إلى لوحة المفاتيح، أرادت أن ترد، أن تقول شيئًا... لكنها تراجعت.

ليس الآن.

الشجاعة لم تكتمل بعد .. ربما غدًا .. ربما بعد لحظة صدق تأتي متأخرة.

لكنها كانت متأكدة من أمر واحد :

ستذهب ..

رغبتها في المعرفة ستغلبها، كعادتها دائمًا.

ولم يكن هذا الإحساس جديدًا عليها، بل كان يشبه نبوءة داخلية تعرفها منذ زمن ، أنّ هذه لن تكون الرحلة الأخيرة ، و أن ما ينتظرها بعد هذه الرسالة، أعمق و أبعد و أكثر من مجرد صدفة .. شيء غريب يجعل من السريالية ذاتها واقعاً مفهوماً ..

****

حين هبطت قدماها على أرض إسطنبول، شعرت نور كأنها تهبط في طبقة زمنية موازية، مدينة عالقة بين الأمس والغد، تمامًا كما هي... عالقة بين ما كانت عليه وما قد تصبح.

الهواء هنا له رائحة البحر والحنين، كأن الندم يطفو في الأفق مع طيف مآذنها وظلال شوارعها الضيقة.

كل حجر في المدينة بدا لها كشاهدٍ على سرّ لم يُقال، تمامًا كروحها المثقلة بأسرار لم تُفهم بعد.

سحرُ إسطنبول لم يكن في جمالها فقط، بل في تناقضها الصارخ .. شرقٌ يعانق الغرب كما يعانق الشعور بالعجز رغبة الخلاص.

وبين الأزقة المتعرجة، شعرت نور أن المدينة تتنفس مثلها... تنهيدة طويلة لا تنتهي، هندسة متقنة من طبقات الندم والنجاة.

إنها ليست مجرد مدينة من حجر فحسب ، بل مخطط شعوري حيّ، كأن من بناها كان يحاول أن يصمّم طريقة لفهم الندم ..

ومنذ اللحظة الأولى، أيقنت نور أن رحلتها نحو الإجابة قد بدأت بالفعل، وأن إسطنبول ليست محطة أخيرة ، بل بوابة أولى لفك شيفرة الذات.

تجوّلت بين الأزقة القديمة في **حي الفاتح** ، تبحث عن شارع شريف باشا إلى أن وصلت إليه .. مشت فيه تبحث عن الباب المذكور في الرسالة حتى بلغت كنيسة مهجورة قيل لها إنها تحوي أرشيفًا بيزنطيًا خفيًا يعود للقرن الرابع .. المكان مغلق تمامًا عدا باب صغير أزرق كما وصف بالرسالة تماماً ، نصف متهالك و بدون رقم ، في الجهة الخلفية من الكنيسة .. كان مفتوحاً كأنه ينتظرها .. نادت على القاطنين فلم يجبها أحد ، فكرت قليلاً ثم دفعت الباب أكثر و دخلت بحذر ..

في الداخل كانت المفاجأة تنتظرها ، رجلُ مسنّ بملابس كهنوتية ، يجلس خلف طاولة عليها شمعدان ذهبي مشتعل و فقط ..

حين رآها ابتسم و قال ببساطة :

= تأخرتِ أيتها المستقبلة !!

تجمدت في مكانها .. من أين يعرف هذه الصفة عنها ؟!

لحظات و عرّف عن نفسه أنه الأب خليل .. رجل كهنوتي عريق ناهز السبعين .. في قسمات وجهه تجتمع الحكمة والندوب، كأن الزمن مرّ عليه بتؤدة، يوقّع على كل تجعيدة بختم تجربة .. عيناه، بنيتان كجمرٍ تحت الرماد، لا تنظران بل تكشفان، كأن فيهما مرآةً للضمائر.. صوته لا يعلو، لكنه يعلِّم، يحمل نبرة قديسٍ فقد إيمانه ولم يتخلَّ عن الرحمة .. في حضوره، ينكمش الصخب، وتنتظم الفوضى كما لو أن الصمت نفسه يخشاه .. كان يعرف من أين يأتي الندم، لكنه

لم يكن يعظ، بل يرافق التائهين بصبرٍ هندسيّ، يرسم لهم مخارج لا يرونها ..

رداءه الكهنوتي ليس زيًا بل ظلٌّ ثقيل من الأسرار التي حملها طوعًا .. لا أحد عرف من أي باب دخل إلى الإيمان، لكنه ظل حارسًا لأبواب لا يجرؤ غيره على فتحها .. كان أبًا لا بالدم، بل بالحكمة، وبقايا حب نجا من الحروب الداخلية.

شرع يحدثها عن نفسه بدون مقدمات ،عن هندسة المشاعر و كيف أنه كان آخر من امتلك نسخة مما يُعرف بـ**خرائط التوزيع العاطفي** ، وهي مخطوطات هندسية مشفّرة ترسم طيف المشاعر في البشر.. كما أخبرها بشيء هام آخر :

= رأيت جهاز تفريغ الندم عندما كنت شابًا .. في دير فرنسي يدعى سانت غيوم .. لم أجرؤ على لمسه.. لكنكِ وذاك الرجل الياس رافنر توشكان على فعل ما هو أكثر من ذلك ..

ذهلت نور، فلأول مرة يُذكر اسم إلياس أمامها ، لذا سألت بفضول مشوب بشعور آخر مبهم ..

= و من هو رافنر هذا ؟!

لكن الأب خليل لم يجب .. فقط أعطاها لفافة جلدية وعليها رسم... الرمز ذاته الذي رآه إلياس في الدير و رأته هي في حلمها :

(وردة داخل مثلث، داخل دائرة مفتوحة)

ثم قال بنبرة باردة زحفت كالصقيع إلى أذنيها :

= الرمز مفتاح... لكنه لا يفتح شيئًا، بل يسبر أغوار من يعثر عليه ..

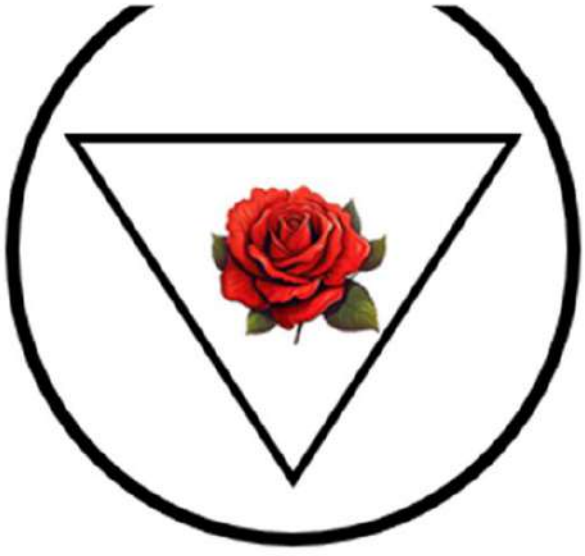

سألت نور، وهي تحدّق في الرمز كمن يرى خريطةً لروحه ولا يفهم لغتها :

= و ما معنى هذا الرمز الغريب يا سيدي ؟

رفع عينيه بتأنٍ، كما لو أنه يستدعي ذاكرة ليست من هذا العمر، وقال بصوتٍ بدا وكأنه يخرج من عمق بئرٍ قديم :

= ليس رمزًا واحدًا، بل ثلاث نبوءاتٍ متشابكة... **الوردة** هي المشاعر .. ناعمة، خادعة، دامية... وعلى رأسها الندم، سيد الآلام التي لا تنام .. أما **المثلث**، فهو العقل، ذاك الحارس المتغطرس الذي يظن أنه قادر على احتواء المشاعر، تهذيبها، ترويضها كوحش في قفص من المنطق .. و أخيراً **الدائرة** ... هي الزمن ، ذاك السجان الذي لا نراه لكنه يطوّقنا جميعًا .. لكنها هنا منكسرة، كما لو أن أحدهم قد كسرها عمدًا ليترك منفذًا، بابًا للهروب .. تخيلي يا ابنتي، لو تمكن الإنسان من قذف أحماله الشعورية السلبية خارج الروح، هذا هو أمل أخوية النور المكسور، في عهدها الأول على الأقل قبل أن تنحرف و ننشق عنها .. و هذا الرمز هو نشيدها ..

صمتت نور لحظة، وقد أرهقها تأمل المعاني، ثم سألت بفضولها المعتاد عن الشيء الذي أثار دهشتها منذ استلمت الرسالة :

= لكن ... لماذا اخترت أن نلتقي في الساعة **7:13** بالضبط؟ ألا يبدو التوقيت غريبًا ؟ الناس عادة تفضل تمام الساعة .. انصافها .. ارباعها !!

ضحك الأب خليل ضحكة خفيفة، لا سخرية فيها بل أسرارٌ لا تُقال كلها ، ثم أجاب :

= لأن **7:13** ليس مجرد رقم ... هو توقيع الزمن حين يفقد

توازنه .. الرقم **7**، هو رمز الاكتمال .. سبع سماوات، سبعة أيام، سبعة منافذ للنفس... هو دورات الوجود، **الكمال** حين يتوازن العقل والشعور.. أما الرقم **13**... فهو **الكسر** .. رقم القلق، العبور، الخروج من النسق... رقم التمرد المقدس .. في الغنوصية الرقم 13 ليس شؤمًا، بل لحظة الانفصال عن الوهم، أول خطى الحقيقة .. و بذلك يكون الرقم **7:13** هو تصادم النور مع الشك، لحظة اختراق الضوء لجدار النفس ، إنه الموعد المقدس الذي تتصدع فيه الدائرة وتُفتح فجوة صغيرة... تكفي فقط لخروج الشعور المتكلّس، و ولوجك إلى ما بعد الحواس .. و هو الرقم المقدس بالنسبة لنا .. نحن الذين تمردنا على الأخوية ..

اقترب منها، صوته انخفض كمن يلقي سرًّا في أذن جبل :

= حين تلتقي خطوطك بخطوط إلياس، بفضل **كاسيان**، ستشعرين بجوهر هذا الرقم كتجلي... وستفهمينه ليس بعقلك، بل بذاتك كلها ..

هنا عقل نور لم يعد يحتمل .. انفجرت أسئلتها كطلقات من بندقية في يد مرتجفة تحت الحصار :

= أي تجربة أبتاه ؟! من أنتم ؟ ما هذه الأخوية ؟ ولماذا التمرّد؟ ومن هو كاسيان؟ وكيف تعرف عني وعن المدعو إلياس؟ ولماذا نلتقي أنا و هو أصلاً ؟

نظر إليها بعينين امتلأتا بحنان لا يشبه الأبوة، بل يُشبه معرفةً أعمق ، حزن المعلّم الذي يعرف أن كل إجابة هي

باب لألمٍ جديد .. لم يجب .. بل نثر مسحوقًا رماديًا فوق الشمعدان، فاشتعل اللهبُ فجأةً في دوامةٍ من الضوء والظل كما أفعال الحواة... ثم تلاشى الأب خليل.

بقيت اللفافة على الطاولة تشتعل بلونٍ فوسفوريٍّ ساطع . ووسط الرمز الثلاثي، انبثقت الكلمات :

عبور العتبة : الساعة 7:13

نظرت نور إلى ساعتها .. كانت متوقفة عند **7:13** بالضبط !!

تماماً كما حدث لإلياس من قبل .. اللحظة التي ولج فيها من

العتبة إلى الغرفة، فتوقفت ساعته، كأن الزمن نفسه انحنى وابتلع تلك اللحظة... ثم جمّدها.

إنها ليست صدفة جمعتهما معاً .. إنها لحظة عبور من (العالم العادي) إلى (عالم هندسة الندم) ، حيث لا تُقاس التجارب بالساعات، بل بالتحولات.

الرقم 7:13 ليس وقتًا ... بل بوابة .. لحظة انكشاف الدائرة، حين تُستخرج المشاعر المدفونة من جرح الزمن وتُطلق نحو الشفاء أو الفناء.

أما **العتبة**، فهي في الميثولوجيا القديمة، ليست مجرد مدخل ، إنها خط فاصل بين الحُجُب والوضوح، بين من يعتقد أنه يعرف، ومن جُرِّد من أوهامه بالقوة.

المرشد السلبي شخص لامس الحقيقة، وارتد عنها مرتعشًا متردداً في عبور العتبة .. الأب خليل كان كذلك ، عرف

الرمز، عرف جهاز هندسة الندم ، وسمع أنين التجارب السابقة .. لكنه لم يملك شجاعة العبور .. هو مرشد سلبي، يضيء الطريق لكنه لا يسلكه، يؤمن بأن الحقيقة لا تُعطى لكل أحد، بل تُسلّم فقط لشجعان خُلقوا كي يحترقوا بها .. إلى مختارين لا يشبهون أحداً .. و كما يثق المتمردون على الأخوية ، فإنّ الياس و نور من سلالة هؤلاء المختارين ..

الفصل الخامس

القدم الرابعة

مضت عدة أيام أخرى على حادثة الدير ، و الياس لم يعد أبداً كما كان ..

لم يخبر أحدًا عن الغرفة السوداء .. لم يرسل حتى أي تقرير مهني إلى مكان عمله .. كما لم يكتب سطرًا واحدًا في دفتره المعتاد.

لكنه بدأ يرى كل ليلة منذ عاد من الدير، حلماً جديداً غريباً عجز عن تفسيره :

أرض من رمال سوداء .. أربعة آثار أقدام مفترضة .. لكنه يرى ثلاثًا منها فقط ..

محملاً بأثقال الأسئلة التي لا تهدأ عن الرمز غير المفسر و الحلم غير المفهوم ، ناهيك عن الكلام الغامض للمرأة ألفا التي قابلها في أنجيه .. بحث في دفاتر مذكراته وكتب دراسته، كما عبر متاهات الإنترنت اللامتناهية، يفتش عن نور يبدد ظلام الحيرة .. عن أجوبة أو تفسير لحفنة من تلك الأسئلة على الأقل ..

ثم، كوميض خاطف في ظلمة المجهول، اصطدم خلال بحثه

على المتصفح باسم عالمة رموز إيطالية، دكتورة **فيرونيكا ماريني** ، امرأة تحمل في عينيها بريق الحكمة وكنوز الأسرار .. كانت ماريني مشهورة بأبحاثها في مجال الرموز الغامضة و بالتحديد (الرموز غير القابلة للترميز) ، لذا كانت محط أنظار الباحثين في روما، حيث التاريخ يلتقي بالغموض.

كتب لها رسالة يفيض بها الفضول والقلق، شرح فيها ما رآه و ما أحس به، وأرفق صورة الرمز الغريب، طالباً فرصة اللقاء أو حتى استشارة سريعة.

لكن لم يصله منها جواب عاجل يشفي عقله المتهيج ، فقرر أن يجعل من روما وجهته، مدينة العراقة التاريخية حيث تصطف الأبنية الحجرية وتخفي بين جدرانها أسرار العصور ، هو كان عازماً على زيارتها قريباً كسائح ، فليضرب إذن عصفورين بحجر أثري واحد ..

في مكتبها البسيط قرب ساحة نافونا، حيث تلتقي أصوات الموسيقى بعطر التاريخ، التقى إلياس بفيرونيكا ، التي أخذت تقرأ بتمعن صورة الرمز(الوردة ، المثلث و الدائرة) .. نظرت إليه بعينين عميقتين كأنهما تريان ما خلف الغطاء، ثم قالت بصوت هادئ وثقيل :

= هذا الرمز ليس مسيحيًا... ولا وثنيًا .. إنه أقدم ، مستوحى من مفهوم رمزي غامض نحن نسميه في الأوساط الرمزية : **القدم الرابعة** ..

رفع حاجبيه من الدهشة و هو يتذكر الحلم الغريب :

= ماذا تعنين ؟

= أثر القدم الرابعة يرمز إلى الأثر غير المرئي، الوجود غير المحسوس، أو الندم الذي لا يراه أحد لكنه يغيّر كل شيء .. لدينا ثلاث خطوات يمكن رصدها دائمًا : **الماضي** ، **الفعل** ، **و النتيجة .. لكن الندم** هو الخطوة الرابعة الخفية التي تظل تُلاحق الإنسان.

تجمد مكانه مصعوقاً و هو يتذكر حديث سيدة أنجيه عن هندسة الندم ..

صمتت العالمة فيرونيكا للحظات ثم أضافت :

= وهذا الرسم ليس رمزًا فقط .. إنه مفتاح نمطي .. الرمز يغير شكله بناءً على وعي من يراه .. في بعض النصوص، كانت الدائرة مقلوبة .. في أخرى، كانت الوردة سوداء ..

ثم ابتسمت و قالت بهدوء مريب :

= أعتقد أنك بدأت تتغير بدورك ، سيد رافنر ..

خرج الياس في ذاك المساء من مكتب الدكتورة فيرونيكا و هو شارد في اللامكان و اللازمان بين ساحات روما ، حيث تتشابك الأزقة كأغصان شجرة تتلاشى بضباب التاريخ .. يسير وحيدًا، مثقلاً بعبء الأسئلة التي أتى كي يجيب عنها فعاد مع أحفاد لها .. أسئلة لا تترك له مهربًا من صمت الليل .. تاه بصره بين الوجوه المجهولة وأبواب المحال المغلقة، حتى جذب انتباهه متجر صغير في طريقه، كأن الزمن توقف عند عتبته .. ربما لو مر بجواره منذ بضعة أيام لما أثار انتباهه .. و لكن اليوم هنالك شيء مختلف ..

كانت نافذة المحل تعانق ظلال الماضي، مفروشة بأشياء نادرة وعتيقة، تموج بأصوات خافتة لا يسمعها سوى من يجرؤ على التوقف .. وبين الفوضى المنظمة، تسللت عيناه إلى صورة معلقة بلا حراسة، ورقة مصفرة تحمل سردًا صامتًا.

تقدّم ببطء، كأنه يخشى أن يخترق لحظة سرّ مقدس.

كانت رسمة متقنة لغرفة الدير نفسها التي حطمت هدوء روحه منذ أيام ، تلك الغرفة السوداء التي تحيط بها ظلال لا يفهمها إلا من ذاق طعم الندم .. صورة قديمة، مُوقعة بخط فرنسي يهمس بجملة فيها حنين لمستقبل لم يأتِ بعد :

C'est ici que tout a commencé

(هنا حيث بدأ كل شيء ..)

كأنّ تلك الصورة لم تكن معروضةً صدفةً، بل كانت نداءً عليه شخصياً ، وضعت كي يراها اليوم و حسب !! ..

اقترب من الرجل المسنّ مالك المتجر و الذي يحمل المحل اسمه الشخصي (**دانييل**)، كان يجلس خلف طاولة مغطاة بقطع أثرية وأوراق بالية، عيناه تحملان بريقاً من الأسرار التي ترفض الإفصاح .. حياه ثم رفع الصورة ببطء، وأشار إليها متسائلًا :

= هل يمكنني معرفة من أين جاءت هذه الصورة سيدي؟ هل تعرف أصلها ؟

تنهد الرجل بعمق، وصمت قليلاً كما لو كان يستحضر أصوات الماضي الخافتة، ثم قال بصوت مزيج بين الثقة بالجواب و الحيرة بأبعاده :

= هذه الصورة ورثتها عن جدي .. كان رجلاً غامضًا، ظلًا يمشي بين البشر، لا يعرف عنه أحد سوى القليل .. كان

يحمل أسرارًا أكبر من أن تبوح بها شفتاه، و رغم أننا كنا نعرفه كمهندس أثري ، كان يبدو و كأنه جزء من شبكة خفية، من تنظيم لا تكتب عنه الكتب ولا تُروى عنه القصص

توقف برهة، كمن يسترجع نبضًا قديماً لا يزال حيًا في الذاكرة، وأخذ يقلب الصورة بين يديه كعناية الأم بوليدها .. ثم أدارها ببطء، وأشار بإصبعه إلى عبارة دقيقة، تكاد تُقرأ همسًا، منقوشة بخط رفيع على ظهرها، وقال بصوت خافت كأنه يستدعي صوتًا من الماضي :

= ذات مساء بعيد، سلّمني جدي هذه الصورة وقد علا وجهه ضوء غريب، ضوء أشبه بشمس تغرب في عيني من عرف الحقيقة الكبرى .. قال لي يومها :

{ أنا رجل محظوظ، وفخور بأنني عبرت تلك العتبة بقدميّ. دخلت الغرفة التي في الصورة وخرجت منها إنسانًا آخر .. كانت تلك الغرفة نقطة تحوّل في مجرى التاريخ، لا لأني غيّرت العالم فحسب، بل لأني سمحت للعالم أن يغيّرني .. خذ هذه الصورة، وعلّقها أمامك، في صلب عملك، لتذكّرك دومًا بما رأيتَ وما لم ترَ، واحفظ هذه المقولة كما تحفظ النَفَس في لحظة غرق:

النـدم جرحٌ في نسيج الزمن، و الحبّ لا يعيد عقارب الساعة، بل يقنع الجرح أن يزهر.

لا تنسَ هذا أبدًا... فالندم سرطانٌ ينهش الروح، والحبّ هو الترياق الوحيد الذي لا يُباع ولا يُصنع، بل يُولد بين ضلع ونبضة } ..

ثم نظر دانييل إلى الياس بثبات، كأنما يقرأ في ملامحه خريطة لحدث لم يقع بعد، وأضاف وهو يشير إلى جدران المحلّ حوله :

= ومنذ ذلك اليوم، التزمت بوصيته .. علّقتها هنا، في هذا الركن المتواضع من العالم، انتظارًا للحظة كهذه ... لحظة قد تكون تجسيدًا لنبوءته، أو بداية لشيء أعمق مما نراه في هذه اللحظة العابرة ..

في اللحظة نفسها، وفي مدينة إسطنبول، كانت نور تمسك لفافة الأب خليل وتحاول ترميم جزئها المحترق، لتظهر تحت الرماد كلمتان إضافيتان :

(الياس رافنر)

****

لم يعد إلياس العالم المادي البحت ، لقد بدأ يتأثر على المستوى النفسي العميق بالغرفة السرية المخفية و هندسة الندم و الرمز الغريب .. بدأ يعاني من الكتمان، الحلم المتكرر، الانعزال، الهاجس ... كلّها أعراض من دخل دائرة رمزية مغلقة .. و أيضاً كان هنالك الحلم المتكرر بثلاث خطوات بدلًا من أربعة الذي لم يتوقف بعد ..

أكثر من ذلك ، هو لم يخبر أحدًا بما حدث و يحدث معه و هذا كله تغير حاد في السلوك الشخصي و المهني ..

جلس على حافة السرير في غرفته الباردة كأعماقه، يحدّق

في الجدار وكأن فيه نافذة تطلّ على زمنٍ مضى .. كان الليل قد تسلل إلى الزوايا، لكن ذهنه لم يكن في الحاضر.. كان هناك، في ذاكرة بعيدة، عمرها أكثر من ثلاثين عامًا.

عمره ثلاث سنوات .. هذا كل ما كان يملكه من والديه : ثلاث سنوات.. بالكاد ملامح، بالكاد أصوات .. يتذكر وجه والدته كضوء خافت في آخر نفق الحلم، ويدها التي كانت تمسح على رأسه عندما كان يبكي من دون سبب .. أما والده، فلم يكن سوى صورة بالأبيض والأسود في درج قديم ، صورة ضبابية لا تحمل دفئًا ولا رائحة.

يتذكّر الليل الذي انفجر فيه صراخ الناس ، كيف أُخرجوه من مقعده على عَجل، انتزع من حضن والدته أو ما تبقى منه ..

الحادث المشؤوم ، قالوا له بعد سنوات، حادث سيارة يتحمل مسؤوليته بشكل جزئي لأنه أزعج والديه ببكائه المستمر ففقد والده التركيز و لم ينتبه للحافة القادمة من مفترق طرق .. لكن في ذاكرته لم يكن الأمر سوى ظلام مفاجئ وصوت زجاج يتحطم، ثم صمت طويل من ندم لا ينتهي.

بعدها جاء الميتم ... بابٌ صدئ يُغلق خلفه، أطفال كثيرون يبكون ولا أحد يجيب.. كل صباح كان يصحو على بكاء طفل جديد، وكل ليلة ينام متمنّيًا أن يستيقظ في بيتٍ آخر، بوجهٍ يعرفه، بصوتٍ يقول له : (اشتقت إليك) ..

لكن لم يأتِ أحد ..

لم يكن الحزن أسوأ ما في الميتم .. الأسوأ كان النسيان .. أن تبدأ ملامح والدتك تختفي من ذهنك ، أن تبحث عن

صوت أبيك فلا تجد سوى صدى خاوٍ .. أن تكبر وأنت تحاول ألا تتعلّق بأحد، لأن كل من تعلّقت بهم اختفوا .. و كأنّ الحب لعنة لا يليق بك أن يعيش طويلاً في عالمك .

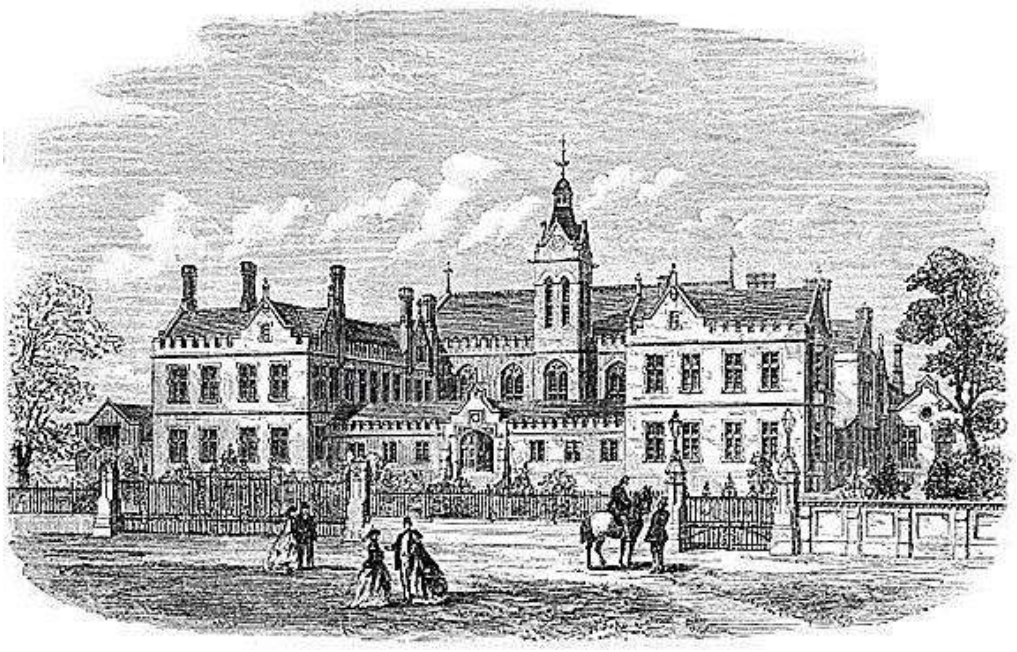

تنفّس إلياس ببطء، كما لو كان يعيد ترتيب الألم في داخله و يهندس مشاعره بخبرته الهندسية المهنية .. نظر إلى يديه، كأنما يريد أن يرى فيهما بقايا من الماضي ... لكنه وجدهما فارغتين ، كما هي ذاكرته الأولى بالضبط ..

الفصل السادس

المتاهة

ثمة أماكن لا نزورها بأجسادنا بل بندمنا، كل ركنٍ مهجور يحتفظ بصدى خطوة لم نجرؤ على اتخاذها، وكل بابٍ مغلق لا يزال ينتظر اليد التي ارتجفت أمام مقبضه.. الندم ليس شعورًا... إنه عنوان على خريطة لم نكمل رسمها

خرجت الكلمات من فم نور باللاوعي، و هي تغادر كنيسة الأب خليل في إسطنبول عقب لقائهما ، بينما تحدّق في الورقة المحترقة بين يديها و اسم الياس عليها .. لا تدري من أين جاءت الكلمات ، و كأن الغرفة هي من هندست الكلام و المشاعر في أعماقها ، لكنها كتبتها في مفكرتها على الفور، وكأنها تعرف أنها ليست مجرد تأمل عابر، بل علامة ..

أمسكت كاميرتها و التقطت مجموعة صور لإسطنبول المذهلة كما اعتادت مع كل زيارة لمدينة جديدة .. و بينما كانت تقلب بينها لتقييم جودتها ، تجمد بصرها فجأة على صورة لدير مهجور في **أثينا** التقطتها في آخر رحلة سياحية إليها ، لكنها هذه المرة لاحظت شيئًا لم تره من قبل ..

في لحظة ظل خاطفة، ظهر على أحد الجدران في الصورة حجر يحمل ذات الرمز الذي يطاردها في الآونة الأخيرة :

(الوردة، داخل مثلث، داخل دائرة مكسورة.)

و كان أسفل الرمز نقش مطموس، لم يُكشف تمامًا، إلا أنها استطاعت أن تقرأ منه شيئًا واحدًا :

Regretum Architectura Radicses — Jerosolyma

(جذور هندسة الندم ـــ القدس)

انهالت الأفكار على دماغها كانهيار ثلجي ..

هل تلك المدينة المقدّسة، التي طالما ربطتها في ذهنها بالوحي و السلام ، ذات علاقة بهندسة الندم ، لا بوصفها مكانًا للخلاص، بل كمسرح لجرح الندم الأول ؟

فتحت المتصفح و أخذت تبحث عن علاقة القدس بهندسة الندم ، فصادفت لدهشتها إعلانًا عن ندوة غامضة في اليوم التالي حول { **الهندسة الرمزية في المعمار المقدّس** } بعنوان : (**متاهة الندم**) ، ستُقام في كنيسة قديمة قرب باب الأسباط ..

و كأن الكون يواصل دفعها نحو نفس النقطة (الندم) ، مهما غيرت الاتجاهات ، كما تفعل الآن بالتقاط الصور التذكارية ، تأرجح دماغها بين أمواج عاتية من الأسئلة ..

هل أنا في المكان المناسب ؟ على الطريق الصحيح ؟ أم أنني سأندم على قراراتي هذه ؟!

لكنني لم أطلب هذه الرحلة بإرادتي... أو ربما فعلت، دون وعي؟

كنت أبحث عن قصة، مجرد قصة جديدة، مثيرة، تكسر الملل الأكاديمي و روتين العمل اليومي، تفتح أبواب السينما الوثائقية أمامي ، هوايتي الجانبية بعيداً عن عملي .. لكنني لم أكن أبحث عن ماضٍ ليس لي.

منذ متى بدأت هذه الدوّامة ؟ هل حين صوّرت الرمز لأول مرة في أثينا باللاوعي ؟ أم حين تعرفت في الغرفة في إسطنبول على رموز بمعانٍ أبعد من حدود الإدراك؟ أم حين وصلني البريد الالكتروني الغريب الذي يعرفني أكثر من نفسي ؟

أشعر بالخوف و الارتباك ..

لكن رغم الخوف ، رغم الشك ... هناك فيّ شيء ينبض بلا توقف .. شيء كان فيّ منذ كنت طفلة .. الفضول المدهش .. كنت دومًا أفتح الأدراج الممنوعة، أطرح الأسئلة التي يخشاها الآخرون .. كان الغموض وقودي، والحقيقة هدفي ، حتى لو لم تكن مريحة.

أمي كانت تقول دائماً :

= بعض الأبواب لا يجب فتحها ..

لكنها لم تقل أبدًا لماذا ؟ وعلمتني الحياة أن كل منع هو دعوة خفية للاكتشاف.

أنا هنا الآن أمام خيار صعب و معقد .. لكن على الأرجح ، إن لم أذهب... سأبقى أتساءل للأبد .. أو الأسوأ سأندم بشدة لأنني لم أخطو أو لم أمسك بمقبض الباب ..

ولهذا... سأذهب ... سأمضي في هذه التجربة حتى النهاية ففيها من الغموض ، الألغاز ، الأسئلة و الترقب ما يمنحني شعوراً بأنها و بشكل غير مفسر مفصلة على مقاسي بترزيّ خبير ..

*****

كانت **القدس** تزدحم بأسئلتها الروحانية الفلسفية كعادتها..
غبارها ذهبي، لكنه يخفي تاريخًا لم يُشفَ بعد.

القدس لا تستقبل زائرها ، بل تختبره .. تمدّ له الأزقة كما لو

كانت شرايين قلب عتيق، وتنتظر أن يُصغي لنبضها ... أو يُرفض.

ونور استجابت بتوق ، بكاميرتها الصغيرة المعلقة على كتفها، تقدمت بخطى ثابتة نحو منطقة باب الأسباط حيث الكنيسة التي تحتضن المؤتمر ..

دخلت القاعة الحجرية بفضول يتأجج .. لم تكن مزدحمة، لكن الحضور كانوا من نوع نادر : أعينهم معلّقة في الفضاء، كأنهم حضّروا بحثًا عن شيء لا يعرفون اسمه بعد.

جلس في المقدمة رجل طاعن في العمر، أنيق في بذلة رمادية باهتة، له لحية بيضاء مرتبة وصوت يشبه أوراق الخريف حين تتحرك فوق الإسفلت.

نهض و عرّف عن نفسه بأنه البروفيسور **ريكاردو دي فالنتي**، متخصص في علم الرموز المعمارية، ودرَس لعقود ما أسماه (**المتاهة الشعورية**) ، ثم رفع يده، كمن يرسم دائرة في الهواء، وقال :

= تخيّلوا الندم... لا كخَطأٍ وقع، بل كمعمار بُنِيَ داخل النفس. متاهة لها جدران، منافذ، أبواب وهمية، ومخرج واحد لا يُرى إلا من الداخل .. في بعض الثقافات القديمة، كان يُقال إن كل إنسان يُولد وفي داخله مدينة خفية .. إن لم يزُرها في حياته، أحاطه طيفها عند موته ..

سكت قليلًا، ثم نظر نحو الجدران الحجرية حوله.

= هذه المدينة ... القدس ... ليست مكانًا فحسب، بل هي

خريطة شعورية .. كل زاوية فيها تُعيد تمثيل صدى جرح، وكل معبر يوصل إلى شكل من أشكال الندم الجمعي .. هل تظنون أن تصاميم هذه الأزقة مصادفة ؟ لا.

في العمارة القديمة، كل خطّ كان مقصودًا .. لأنهم اعتقدوا أن الأرواح تشفى حين تمشي داخل شكل معيّن.
و لهذا... وُجدت المتاهة ..

ارتجف شيء ما في أعماق نور.. شعرت أن الكلمات لا تُقال للعموم، بل تنفذ مباشرة إلى قلبها، كأن أحدهم يقرأ خريطة خفية في داخلها.

رفع البروفيسور لوحة خشبية صغيرة، عليها نقش متآكل يُظهر متاهة ملتفة كالقوقعة، وفي قلبها رمز الوردة.

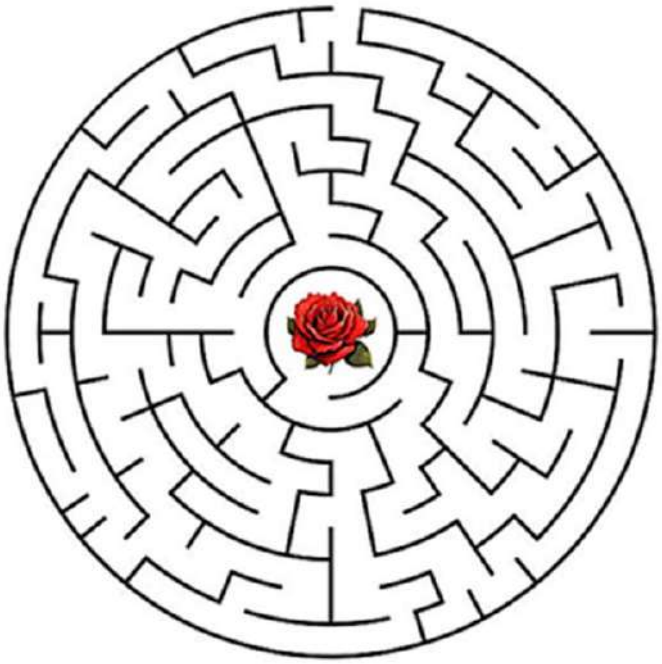

= هذه، وُجدت في دير مهجور فوق جبل الزيتون .. لا أحد يعرف مَن نحتها أو متى، لكن من يعرف الرموز، يعلم أنها ليست مجرد زخرفة... هذه هندسة ندمٍ لم يُدفن بعد .. هناك

مَن يقول إن من دخل هذه المتاهة ولم يفهم ما تعنيه، حملها معه إلى الأبد ..

همس لنفسه وهو يحدق في اللوحة :

= وإن فهِمها... فقد نفسه، و وجد ما هو أثمن منها ..

نظرت نور حولها .. لم يكن أحد قد لاحظ أنها ترتجف، أو أنّ عينيها اغرورقتا بالدموع ..

مضت ساعة أخرى و اقتربت الندوة من نهايتها .. الهواء في القاعة بدا أثقل مما كان، كأن الأفكار التي طُرحت لا تزال معلّقة في الفضاء تنتظر مَن يتلقفها بجرأة.

وقف البروفيسور قرب حافة المنصة، وصوته صار أبطأ، أعمق، أقرب إلى همسٍ روحاني :

= دعوني أختم بما لا يُقال كثيرًا في قاعات الأكاديميا ... دعوني أختم بإلياس ..

تشنجت كل عضلة في جسد نور مع سماعها الاسم ، في حين ساد صمتٌ مشدوه بين الحضور، كأن الاسم حمل معه شيئًا أقدم من الكلمات.

= نعم، النبي إلياس... لم يكن نبيًا فقط، بل كان شاهدًا... مقاتلًا في معركة لم تكن بالسيف، بل بالحقيقة .. وقف وحده على جبل الكرمل هنا ، في مواجهة أربعمئة وخمسين من كهنة البعل .. لم يخَف .. لم يتراجع .. دعا النار إلى مذبحه لا ليُبهر أحدًا، بل ليُثبت أن النور لا يحتاج عددًا، بل

صدقًا ..

ثم تمهل، عيناه تجولان في الوجوه أمامه.

= في كل زمن، هناك من يقف حيث وقف إلياس ... أمام الأكاذيب المتخفية في قداسة، أمام المنظومات التي تصوغ الألم وتسوّق للتخلص من الندم كفضيلة .. الباحث الحقيقي عن الحقيقة، لا بد أن يواجه وحده .. عليه أن يعرف أنه أحيانًا (النور) لا يأتي إلا إذا ناديت عليه من قعر العتمة.

أضاف أخيراً بصوتٍ عميق بدا كأنه وُلد من قاع ذاكرة بعيدة :

= وكل من يبحث عن مخرج من متاهة الندم، لا بد أولًا أن يحمل شعلة النور وحده... كما فعل إلياس ..

تسارعت ضربات قلب نور كموسيقى تصويرية في مشهد مخيف ... اسم إلياس ارتطم بروحها كحجر في ماء راكد.

هذا الشاب الغامض الذي تكرر اسمه كثيرا في الأيام الأخيرة كترنيمة وحي سماوية ..

من هو ؟

كيف شكله ؟

ما علاقته بها ؟

و هل هو ذاته الظلّ الغامض الذي يتبعها منذ طفولتها كطيف في أحلامها ..؟

خرجت من الباب، والقدس ما تزال كما تركتها...

لكن في عينيها، كانت هناك معرفة جديدة.

لا يمكن التراجع بعد الآن .. فلا طريق للعودة و لا خيار سوى تحسس طريقها نحو مخرج المتاهة و هي تحمل شعلة النور لتضيء الطريق ، ربما ليس لنفسها ، بل لشخص آخر ينتظرها ، عاش حياته كلها يحارب الظلام بمفرده ..

الفصل السابع

القربان

لم يكن الليل في **فيينا** هادئًا تلك الليلة .. الريح تعبر شوارع المدينة القديمة كمن يُعيد كتابة ذاكرة حجرية نسيها الجميع.
إلياس كان يقيم مؤقتًا في نُزل صغير في **حي ليوبولدشتات**، يحاول لملمة ما تبقى من نفسه بعد رحلاته السابقة ..

كان كل شيء هادئًا، حتى استيقظ فجأة في الثالثة صباحًا على صوت... صفير!

ليس صفيرًا عاديًا .. بل تتابع نغمي، أقرب إلى شفرة مورس موسيقية.. نغمات قصيرة وطويلة تتسلل من خلال جهاز التسجيل القديم الموضوع على الطاولة بجانب سريره .. لكنه لم يشغّله .. ولم يكن يحتوي على شريط أصلاً.

نهض بتردد .. اقترب من الجهاز .. الصفير ما زال مستمرًا ... ما إن مد يده ليفتح الجهاز حتى انقطع الصفير .

صمت مطبق ثانيةً ..

ثم ... خرج صوت رجل :

إلياس، لا تحاول الفهم .. فقط استمع .. الوقت يركض أسرع مما نظن .. تعال إلى محطة شفارتس بلاتز عند الساعة 7:13 صباحًا .. ستجد مقعدًا خشبيًا تحته رمز منحوت : عين تدمع دموعاً حمراء .. اجلس ولا تتكلم .. الموضوع هام و مصيري و يتعلق بك أنت ، أريد أن أنقذك

انتهى التسجيل .. ثم فجأة احترق جزء صغير من شريطه

الداخلي ليتلف التسجيل ..

لم يتردد الياس للحظة في تلبية الأوامر ، و في التوقيت المحدد تمامًا، كان جالسًا في المحطة المهجورة تقريبًا .. البرد يزحف إلى عظامه لكنه لا يبالي و الأمطار ثقيلة في كل مكان جعلت الناس تلتزم بيوتها في يوم عطلة .. المقعد كان هناك، والرمز محفور بدقة مرعبة.

جلس و انتظر ..

دقائق و ظهر رجل ببطء من طرف الرصيف المعتم .. لم يمشِ ... بل بدا وكأنه يطفو على الأرض .. معطف طويل يخفي حذاءه و نظرات ثابتة تقطر جدية ..

= أنا بيوتير فالسكي ..

اقترب منه، جلس على الطرف الآخر من المقعد، دون أن ينظر إليه.

= لا تنظر إليّ إلياس .. نحن نعيش في زمن تسرق فيه العيون أكثر مما ترى ..

مرت دقيقة ..

ثم أخرج فالسكي من جيبه جهازًا صغيرًا، أكبر بقليل من ولاعة .. ضغط عليه، فظهرت على سقف المحطة نقوش ضوئية، كأن السقف أصبح سماءً من الرموز القديمة المتحركة ..

= هل ترى هذا ؟ تخالها رموزًا .. لكنها ليست كذلك .. هذه ذكريات .. مشاعر محفورة في طيف الضوء ..

إلياس كان مأخوذًا بالمظهر ، عاجزًا عن الكلام ..

فالسكي تابع :

= الأخوية أخبرتك نصف الحقيقة فقط ، و أنصاف الحقائق أسوأ من الوهم .. أنت لست مجرد شاهد يا إلياس ... أنت جزء من الهندسة .. وأنا جئت لأنقذك فما ينتظرك قد يكون مرعباً للغاية ..

= من أنت بالضبط ، و ستنقذني ممن ؟

التفت نحوه فجأة، ونظر في عينيه للمرة الأولى :

= أنا في الأصل عالم رموز وأنظمة إدراكية بشرية، كنت

من أوائل من درسوا **نظرية تحويل العاطفة إلى بنية هندسية** ، انضممت إلى " الأخوية " في بداياتها عندما كانت لا تزال حركة فكرية فلسفية، قبل أن تتحول إلى كيان سري يمارس طقوسًا خطرة .. ثم انسحبت منها بعد حادثة مروّعة في منشأة تحت الأرض تُعرف **بغرفة التبادُل** ، حيث مات أحد طلابي بسبب تطبيق مفرط لتقنية هندسة الندم ، و من تلك اللحظة أعيش متخفيًا تفادياً لانتقام الأخوية ، فمن يدخل إليها لا يسمح له بالخروج ..

= و ما الخطر المحدق بي ؟

قبل أن يجيبه فالسكي ظهر رجلان بملابس سوداء في زاوية من المحطة يرمقانهما بنظرات تتأرجح بين المعرفة و اللامبالاة ، ارتاع فالسكي على نحو مفرط و أطفأ الجهاز في يده ثم غادر مسرعاً و بدأ يختفي وسط الظلام، كما جاء .. و خلفه، بقي صدى كلماته الأخيرة التي قالها على عجل عالقًا في هواء المحطة :

هندسة الندم ليست محاولة لفهم الماضي ، بل خيانة صامتة للحاضر .. إنها عبث بالعاطفة يقود العقل في المستقبل إلى هاوية لا قاع لها

*****

مرّ أسبوع على لقائه الأول ببيوتر فالسكي، أسبوع من الصمت والتشويش.. خرج إلياس من الحانة يومها وقلبه

مثقل بالإحباط ..كان المهندس البولندي قد غادر قبل أن يكشف شيئًا حقيقيًا .. كلمات غامضة، ارتعاش في عينيه، ثم اختفاء مفاجئ وسط زقاق **كراكوف** البارد.

لكن الياس لم يعد إلى فرنسا.

بقي، وتعمّق .. راجع أرشيف الجامعة التي زُعم أن بيوتر عمل بها، تتبع مراسلات إلكترونية قديمة، ووجد إشارات إلى صندوق بريد بديل اعتاد الرجل استخدامه منذ سنوات ، كان مدفونًا في أرشيف موقع بولندي معنيّ بالفلسفة المعمارية الرمزية فقرر إرسال بريد له على سبيل المحاولة.

و في إحدى الليالي، عندما عاد إلى غرفته الصغيرة في الفندق الشعبي أتاه الرد ، وجد مغلّفًا أسود بلا عنوان، منزلقًا من تحت الباب .. و في داخله خريطة للمدنية مع سهم يشير إلى مكان محدد .. و في الزاوية السفلية جملة قصيرة مكتوبة بخطّ متوتّر :

جاهز لمتابعة الحديث غداً .. الوقت ينفد .. فالسكي

العنوان الذي يشير إليه السهم؟ نفس الحانة التي يرتادها يومياً على الساعة **7:13** مساءً .. و في النهاية توقيع بكلمة غريبة

القربان

لم يتردد الياس و اتجه بالفعل في مساء اليوم التالي إلى الحانة .. دخل، فوجد بيوتر جالسًا ينتظره بالفعل .. ملامحه منهكة لكن أكثر ثباتًا من آخر لقاء في المحطة ..

أشار له بالجلوس دون كلمة .. ثم قال بصوت منخفض، وهو

يحرك كأسه على الطاولة بطريقة وسواسية :

= لم أهرب في ذاك اليوم .. بل كنت أختنق من الذاكرة ..

كان المكان هادئًا .. ضوء أصفر شاحب يهبط من المصابيح المتدلية كسُرُج تحتضر..

جلس إلياس بصمت، يراقب أصابع بيوتر التي كانت ترتجف قليلاً ..

= ما الذي تخاف منه؟

سأل إلياس، هذه المرة دون مواربة.

= ليس ما فحسب .. بل مَن أيضاً ..

قال بيوتر، ثم التفت إليه مباشرة لأول مرة، وأضاف :

= أخبرتك من قبل ، أنت لست الوحيد الذي اقترب أكثر مما ينبغي من الضوء المكسور ..

ارتجف تفكير إلياس في حين تبع فالسكي ..

= لقد أجبرت في آخر أيامي في الأخوية على تصميم هيكل هندسي مرعب في دير مهجور قرب **زاكوباني** .. لم يعد له وجود الآن فقد محي بالكامل ..

= و ما الهدف منه ؟

صمت بيوتر للحظة و نظراته تائهة بين خيارات معدومة

= هل سبق لك و أن دخلت مكاناً فشعرت بالراحة و السلام ،

في حين شعرت بالقلق و الإحباط في مكان آخر ، و ربما الغضب في مكان ثالث ، أو ندم في مكان رابع .. هل سبق لك و أن لاحظت أن بعض الأمكنة تمنحك مشاعر خاصة و كأنها تتلاعب بأحاسيسك ؟!

= بلا شك .. لاحظت بالفعل ..

= تخيل الآن أنك تبني مكانًا، ليس ليُسكن ، بل ليُحسّ.. غرفة لا تدخلها لتنام، بل لتنسى .. ممر مصمم لتفريغ الذنب ، لا لنقلك من مكان إلى آخر ،هيكل يجعلك تتوه في متاهة شعورية أو تدور في دوامة من الذكريات و الأحاسيس الممزوجة ..

هزّ رأسه ببطء، كمن يستعيد شيئًا ضاع منه :

= أظنك رأيت أحد تلك الأماكن، أليس كذلك ؟ الدير .. السرداب... اللوح... الغرفة التي لا تشيخ ..

تجمد الياس في مكانه .. من أين عرف بذلك ؟! لكن فالسكي لم يمنحه ترف التفكير و أردف على الفور ..

= تلك الهندسة ليست من ابتكارنا .. نحن فقط اكتشفنا آثارها... من زمن لا توثيق له .. الأخوية أعادت إحياءها و تطويرها كما حاول النازيون من قبل ، لأنها وجدت فيها طريقة لقراءة شعور الإنسان داخل الحجر، داخل الفراغ أو ربما إعادة تصميم تلك المشاعر بشيء يشبه السحر... لكنه ليس كذلك ..

أخرج بيوتر ورقة مطوية، رسم معقد يشبه اللوح الذي رآه

إلياس الأول في الدير ، لكن بتفاصيل إضافية، ودوائر حمراء حول زوايا معينة.

= هناك غرفة لا تزال قائمة، لم تكتشف بعد .. إنها الغرفة النهائية التي صممتها الأخوية لا أحد يعرف مكانها بالضبط ، لكنها تنتظر الشخص المناسب فقط كي يجربها ، و هذه الغرفة مرعبة بطريقة لم تشهدها أقسى زنازين التعذيب في أقبية أقذر السجون ، لا يسعني حتى التفكير بما يمكن أن تفعله بمن يدخلها ، تماماً كما تعيد تهيئة هاتفك فتمسح عنه كل شيء ، لكن عبر تجربة معاناة تطحن العظام ... و هذا الشخص المناسب يجب أن يتحلى بخصائص معينة لا يملكها أحد سواه ..

صمت قليلاً ثم نظر في عيني الياس و كأنه يشفق عليه مما ينتظره ..

= هذا الشخص هو ... أنت الياس ..

تزايدت ضربات قلب الياس و كأنه صوت مغني أوبرا في الثواني الأخيرة من غنائه ، رفع حاجبيه بدهشة ..

= أنا ؟! لماذا ؟!

مال فالسكي إليه و همس ..

= هذا هو السؤال الذي لا أملك الإجابة عليه .. أنا متأكد أنك الشخص المنشود فقد ذكر اسمك أمامي مرات عديدة في الأخوية .. لكنني أجهل لماذا أنت بالتحديد ؟ و هذا ليس مربط الفرس في حديثنا سيد الياس .. المهم أن تنقذ روحك

من هندسة الندم ، لأن نهايتك قد تكون وخيمة كنهاية طالبي العزيز الذي قتل خلال التجربة أو ربما ما هو أسوأ .. مصير طلاب آخرين فقدوا عقولهم و هاموا في ملكوت الجنون ، أخشى أن تكون القربان سيد الياس .. قربان اختارته الأخوية كي تغير مستقبل البشرية ..

الفصل الثامن

مرآة بوجهين

لم تكن نور في قصرٍ، بل في ذاكرة مشيّدة.

قصر الحمراء لم يبدُ لها معلمًا سياحيًا ولا أثرًا معماريًا، بل كيانًا حيًا يتنهّد بحنينٍ دفين .. كل زاوية فيه تنطق، كل نقشٍ يتموّج تحت عينيها كأنه يرتّب لها رسائل.

كانت تتجوّل في الباحة الكبرى بخطى حذرة، كأنها لا تريد إزعاج الحجر من تأمّله .. رفعت رأسها نحو الأقواس المزخرفة، وفي قلبها سؤال لم تسمّه : كيف احتمل هذا المكان كل هذا الجمال، وكل هذا الفقد ؟

اللون الأحمر الذي يسمّيه السائحون توقيع الحمراء ، لم يكن في عينيها سوى شيء آخر... دموع ندم .

نعم، كانت ترى الجدران تبكي.

الدموع الحمراء هنا ليست ماءً، بل ذاكرة .. وليست دمًا، بل كناية بشرية عن الندم .. ندم الملوك على عروش لم يعرفوا كيف يحافظون عليها ، ندم العاشقين على حب غالي فرطوا به ، ندم المعمار نفسه حين أدرك أنه صنع الجمال في زمنٍ

لا يعرف كيف يحفظه.

وقفت وسط الباحة، وهمست لنفسها :

(هذا المكان يعرفني ... كما يعرف ما لم أبح به بعد.)

السياح يتنقلون كالظلال، و شيء ما في النقوش الأندلسية كان يخاطبها مباشرة : الزوايا، الكتابات، التماثل شبه المستحيل... نفس الإحساس الذي اجتاحها في أزقة القدس ..

قبل يومين فقط، وصلها البريد الجديد .. ليس إلكترونيًا هذه

المرة، بل رسالة ورقية، داخل كتاب مستعمل اشترته صدفة من بائع متنقل في باب الأسباط ، عنوان الرسالة كان بسيطًا :

من لم يرَ انعكاسه... لا يمكنه أن يرى الحقيقة

مع توقيع :

م. ك – وصيّ الجناح الوردي

و بالخلف كان العنوان **(قصر الحمراء / غرناطة .. الغرفة المنسية)** ..

تقلّبت الرسالة في رأسها كنائم قلق .. هل تسافر مجدداً أم تمنح روحها استراحة محارب .. إنها مرهقة من الأسفار المتلاحقة .. لكن الفضول – ذلك اللهيب الذي لم ينطفئ منذ طفولتها – أكل المنطق و حسم قرارها.

و هكذا كان ، ها هي الآن في صالة ضيقة خلف إحدى

القاعات المهجورة من القصر، وجدت بابًا صغيرًا لا يُستخدم ، لم يكن مغلقًا، بل متروكًا بإهمال خلف ستارة حريرية تنتظرها .. دفعت نور الباب بصمتٍ متوتر، ودخلت .. الغرفة بدت أشبه بتجويف في صدر الأرض... ضيقة، سقفها ينحني بانحناءة مقلقة، كأنها كانت حجرة سرّية حُجبت عمدًا عن الزمن.

لم يكن فيها أثاث، ولا نقش، ولا حتى صدى... فقط ظلمة ساكنة، وريح خفيفة تتسلل من لا مكان.

لكن ما لفت نظرها لم يكن الفراغ، بل ذلك الضوء الخافت الآتي من الحائط الأمامي، محجوبًا بستارة ثقيلة كُتمت خلفها أنفاس النور.

اقتربت ببطء، ولم تعرف لماذا شعرت أن خلف تلك الستارة يكمن سرّ لا يشبه أي سرّ واجهته من قبل .. مدت يدها وسحبت القماش المخملي بخفة...

لم تكن نافذة كما توقعت، بل مرآة.

لكنها لم تكن مرآة عادية... سطحها يشعّ بنورٍ ناعم لا يصدر منها بل كأنه يأتي من عمقها .. لم يعكس صورتها مباشرة، بل شيئًا فيها... أو خلفها... أو ما تظنه خلفها.

بدت كأنها بابٌ بلا إطار، زمنٌ مُجمّد في زجاج.

كانت المرآة تنظر إليها، لا العكس.

وفي اللحظة التي لامست فيها نورُ إصبعها الزاوية السفلى منها، شعرت برجفة خفيفة تسري في يدها، كأنها لامست

ذاكرة قديمة... ذاكرة لا تخصّها، لكنها نادتها بالاسم.

اقتربت نور أكثر، نظرت إلى المرآة .. لم يكن انعكاسها واضحًا، بل مشوّشًا، كأنّ هناك شيئًا خلف زجاجها ... ثم لحظة ... ظهرت صورة أخرى خلفها .. لا ظلّ، بل هيئة لرجل يرتدي معطفًا داكنًا، يقف في ممر لا يشبه المكان إطلاقًا.

استدارت بسرعة ، لكن لا أحد.

في أعماقها فهمت : هذه ليست مرآة عادية، بل مرآة مزدوجة بوجهين وجهها الآخر في مكان آخر ينظر إليه الآن ذلك الشخص الغريب .. تراه ظلها و يراها ظله .. لكن من هو ؟

لم يتأخر الجواب كثيراً ، إذ لاحظت فجأة لوحة يتيمة قديمة معلقة في الجدار الجانبي للغرفة ، اتجهت نحوها ، كانت عن **باريس** فبرج إيفيل واضح ، مؤرخة سنة **1937** !! و فيها مجموعة شبان باللونين الأبيض و الأسود و شاب وحيد

بالألوان الزاهية ..في زاويتها ختم دائري يحمل رمزًا مألوفًا... وردة داخل مثلث، داخل دائرة.

شعرت بشعور غريب يجتاحها و همست لنفسها بلغة واثقة :

"إلياس"...

كان لقاؤهما الأول في مدخل الحمراء بلا ميعاد .. تأملت وجهه كثيراً و شعرت أنها تعرفه منذ قرون .. !!

*****

لم تعرف نور لماذا اختارت تلك الزاوية بالتحديد من **المكتبة الوطنية في مدريد** .. كانت تنوي مراجعة أرشيفات غرناطة القديمة لتفهم قصة المرآة والصورة أكثر، لكن شيئًا دفعها إلى القاعة **13-B7**، المخصصة للمخطوطات مجهولة المؤلف أو غير المكتملة.

رفعت مجلدًا مغبرًا بلا عنوان عثر عليها و لم تعثر عليه .. أوراقه هشة، وكُتبت بخط يد متعرج بالحبر الأزرق الداكن.

في الصفحة الأولى، كانت هنالك عبارة منقوشة تقول :

وما الندم إلا قيدٌ إذا لم يُفهم ...

توقفت عند توقيع صغير أسفل الصفحة :

م. ك – نسخة معدلة من غرفة الدير – تلال أوفيرن

الاسم المبهم مجدداً .. لقد بدأت تعتاد عليه تدريجياً كجزء من تقليد رحلاتها ..

قلبت الصفحات .. الكلمات بدت كأنها شيفرة .. رسومات لمخططات بنائية، أشكال دائرية تتقاطع، وفي الهامش، تعليقات باللغة اللاتينية تتحدث عن :

جهاز تفريغ الشعور المكثف – المرحلة الثانية من المعمار العاطفي – الجناح الوردي

كانت مغمورة في ذهولها حين اقترب منها رجل خمسيني يرتدي سترة رمادية داكنة، أمين المكتبة .. نظر إليها بتردد ثم قال :

= عذرًا آنسة، شخص ما طلب مني أن أسلمك هذه الرسالة أعطاها بطاقة من الكرتون المصقول المقوّى ..

= من ؟

سألته وقد استيقظت حواسها من سبات الدقائق المنصرمة لتنطق باسم وحيد (م.ك) ..

= رجل أنيق ... يرتدي بدلة داكنة وقبعة عريضة .. لم يذكر اسمه، فقط قال إنك ستفهمين ..

نظرت إلى وجه البطاقة الأبيض.. و كان فيه سطر واحد:

مرآة واحدة لا تكفي ..

إذا أردت الاقتراب من الحقيقة أكثر ..

تعالي إلى قصر المرايا في بودابست ..

العنوان على ظهر البطاقة

م. ك

شعرت بتوتر أكبر يجتاح روحها كمغولي بربري .. من هو "م. ك" هذا ؟ وما علاقة هذا بكل ما يحدث ؟

لقد باتت متأكدة أن هذا الرجل الغامض يعرف ما لا تعرفه حتى عن نفسها ..!!

رفعت عينيها لتسأل أمين المكتبة عن أوصافه بمزيد من التفصيل، لكنه كان قد اختفى بين الرفوف.

كل نقطة من جسدها تضجّ بآلام السفر المتتابع ، لكنها رغم ذلك ، قررت أن تتبع الخيط .. قد تعثر على أجوبة بالفعل في بودابست ..

هي الآن في إسبانيا في تعيش اللحظة التي عاشها جدها **طارق بن زياد** بحذافيرها و هو يحرق السفن من خلفه .. لا مجال للرجوع .. الطريق الوحيد هو المواصلة نحو الأمام حتى الخروج من المتاهة ..

الفصل التاسع

الممر الحلزوني

جلس إلياس رافنر في ردهة الفندق العتيق في قلب **كراكوف**، غارقًا في أفكاره، والرسومات المعمارية منتشرة أمامه على الطاولة كأشلاء ذاكرة منسية .. كان كل شيء منذ دخوله تلك الغرفة الحجرية في سانت غيوم، ينهار بصمت داخله .. جهاز تفريغ الندم، الرموز، الصوت... و بيوتر.

كان من المفترض أن يلتقيه مجددًا اليوم، بعد لقائهم الأخير في الحانة كي يشرح له آخر النقاط عن الأخوية الغامضة .. لكن الساعات مضت و بيوتر لم يأتِ.

بدلًا منه، دخل رجل طويل القامة، أصلع الرأس، يرتدي نظارة دائرية وبدلة رمادية.. جلس قبالته دون أن يُدعى.ثم قال بهدوء

= سيد رافنر ..

حدّق إليه إلياس باستغراب :

= أجل .. و من أنت ؟

= اسمي غير مهم، لكن يمكنك أن تناديني **باليد الثالثة** .. أنا و فالسكي نتبع جهة واحدة ، و أنا هنا الآن بسببك ، فأنت تجاوزت عتبة لا يجوز العودة منها ..

أخرج من معطفه ظرفًا صغيرًا، وضعه أمام إلياس.

= هذا ما تركه بيوتر لك قبل أن يُختطف.

صعق إلياس.

= اختُطف ؟ من قبل من ؟

= الذين يكرهون الأسئلة .. والذين يريدون من الماضي أن يُعاد بناؤه ..

= الأخوية !!

= بالضبط ..

فتح الظرف .. في الداخل وجد ذاكرة تخزين حاسوبية مع قصاصة ورقية كتب عليها بخط بيوتر المرتبك :

(افتح ذاكرتي و اعلم ما أنت مقبل عليه)

كان وجه الرجل الذي أمامه ساكنًا كتمثال.

سأله إلياس بحيرة الكترون لم يعد يعرف إن كان موجة أم جسيم :

= و ما الذي تريده مني الآن ؟

= أن تنقذ نفسك مما تورطت فيه ..

= و كيف ؟

= لا أملك الإجابات بل فقط النصيحة ..

ثم وقف فجأة، وألقى جملة أخيرة وهو يسير مبتعدًا :

= بالمناسبة نور أيضًا وصلت إلى العتبة و تجاوزتها كحالك بالضبط ، ربما تعاونتما معاً للخروج من المتاهة ..

تجمّد إلياس في مكانه.

من هي نور؟!

وقبل أن يلحق به أو يسأله، اختفى الرجل كما ظهر، دون أثر.

أدار إلياس نظره نحو نافذة الفندق .. ضوء شاحب يتسلل من السماء الغائمة .. وشعور داخلي يتعاظم بأن الأحداث بدأت تتسارع بطريقة لا يمكن كبحها.

****

جلس الياس أمام حاسوبه في غرفة الفندق و أدخل بطاقة الذاكرة إليه ثم فتحها ، تحولت الشاشة فجأة إلى اللون الأسود ثم بدأ ما يشبه الفلم الوثائقي بالعرض ..

مشروع– FAI-9

Der Spiralkorridor

هامبورغ – 1944

أو ما يسمى الممر الحلزوني في مدينة **هامبورغ** الألمانية ، منشأة تحت الأرض بُنيت عام **1937** من قِبل وحدة نازية سرّية في الـ **SS** تُدعى :

Abteilung für Emotionale Manipulation

أو :

(وحدة التلاعب العاطفي)

الهدف : استخدام مبادئ **النسبة الذهبية (φ) و متوالية**

فيبوناتشي لإنشاء ممر يُحدث استجابة عاطفية متحكّم بها.

تم اختبار التأثير على أسرى يهود ونزلاء سياسيين ..
ظهرت صور .. خرائط قديمة .. تصميم حلزوني متناسق، مكوّن من درجات إسمنتية تلتف داخل جوف الأرض كأمعاء ميّتة .. عند كل زاوية، كانت هناك علامات محفورة : عيون مغلقة، قلوب مكسورة، وشفرات حادة مرصوصة بطريقة لا تُفهم.

النظرية كانت : (إذا تحرك الإنسان داخل بناء يتّبع النسبة الذهبية، تتناغم خطواته مع تدفق طاقته النفسية، ويتمّ سحب المشاعر من لا وعيه بشكل تصاعدي.)

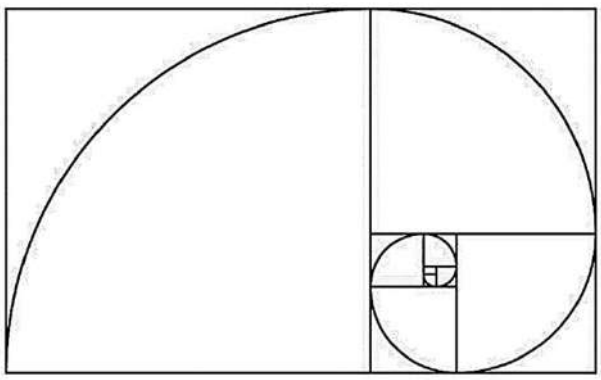

تم تحويل الممر إلى جهاز تلاعب عاطفي، كل خطوة فيه تمثّل تصعيدًا في منحنى **الندم أو الذنب** ..

رفع الياس حاجبيه بدهشة .. في حين تابع الصوت الرخيم الراوي لقصة الفلم الوثائقي ..

و النتيجة كانت كارثة ، جميع من خضع للتجربة انهار نفسيًا خلال الدقائق الأولى .. بعضهم بدأ يضحك بهيستيريا .. آخرون سقطوا ميتين في المنتصف.

وثائق الجيش الأحمر بعد سقوط برلين وصفت الممر:

Die Spirale der Reue

حلزون الندم

ظهرت أمامه صورة حديثة بالأقمار الصناعية : مبنى مهجور في هامبورغ ، جزء من محطة قطار قديمة ..

المدخل لا يزال موجودًا، تحت بوابة حديدية صدئة، عليها حروف تكاد تُمحى **" FAI-9 "**

و قبل أن ينتهي الفيديو علا صوت فالسكي و هو يقول

بصوت مرتجف :

(هندسة الندم ليست أملاً قادماً سيد الياس .. إنها مصيدة للبشرية ... و الطعم هو ... أنت)

****

الفصل العاشر

بلا ندم .. بلا روح

لم تكن الرياح وحدها من يعصف بالمكان، بل شيء أعمق. حين دخلت نور المبنى المهجور في الضاحية الغربية من **بودابست** بحسب العنوان المذكر، شعرت وكأن الجدران تتنفس .. كان المكان مهجورًا، ينوء بخشب متآكل، وسلالم تصرخ تحت وطأتها. عروق العفن تشقّقت على الجدران كخرائط لأرواح فقدت طريقها.

قادتها الخطى ، لا العقل .. كان شعورًا غامضًا يوجّهها، كما لو أن المكان يعرفها أكثر مما تعرفه .. وصلت إلى باب مزدوج، أحد ضلعيه مفتوح كفم ينتظر فريسة، والآخر موصد كأنه يحاول منعها من الدخول .. دفعت الباب .. لم يصدر صريرًا، بل تنهيدة خافتة كأن الغرفة كانت نائمة لتوّها واستفاقت بها.

كانت الغرفة فارغة .. بلا نوافذ، و لا منافذ .. جدرانها بالكامل مغطاة بمرايا طويلة تمتد من الأرض إلى السقف، بتوزيع مدروس يُظهر انعكاس انعكاسها، في دوّامة لا نهائية من الصور.

اتسعت عينا نور من الدهشة ..

في كل مرآة، لم تر نفسها كما هي، بل كطفلة، كمراهقة، كامرأة في أول العشرينات .. كل انعكاس كان يَعرض لحظة ندم :

في واحدة، تقف طفلة قرب باب غرفة أبيها المغلق، تبكي بصمت بعد أن صرخت في وجهه.

في أخرى، تراها تسرق كتابًا من المكتبة العامة، لتكتشف لاحقًا أنه من ممتلكات امرأة عجوز كانت تقرأ فيه كل يوم.

انعكاس آخر يُريها تجاهلها لاتصال من صديقة قديمة كانت تحتاجها بشدة ، لم تتصل بعدها أبدًا.

كل مرآة كانت تنبش جرحًا صغيرًا، لكنها معًا شكّلت خريطة الألم الداخلية التي ظنّت أنها دفنتها تحت طبقات العقل والمنطق.

بدأت تتنفس بصعوبة.

العتمة كانت كثيفة، لكنها ليست سوداء... بل رمادية، مثل ضباب يسكن الروح.

فجأة، وعلى أرضية الغرفة الزجاجية، ظهرت كتابة ضبابية، كأن الأرض نفسها تتكلم بلغة الدخان :

الندم هو من صنعك على ما أنت عليه..

لكن الألم هو توأم الندم ،

فهل تفضل أن تعيش بندم مع ألم...

أم بلا ندم ... لكن بلا روح ؟

ارتجّ المكان.

ثم ـــ بلا سابق إنذار ـــ تكسر الزجاج دفعة واحدة.

صوت المرايا وهي تتحطم كان أقرب إلى صرخة جماعية. . شظاياها تناثرت حول قدميها، انعكاساتها انطفأت واحدة تلو الأخرى، كأن أطيافًا سكنت فيها لقرون وجدت حريتها فجأة.

جسد نور انتفض، وقلبها خفق كطبول الحرب .. لم تنتظر أكثر.

ركضت عبر الممرات كمن يهرب من حلم يوشك أن يبتلعه.

حين خرجت من المبنى، كانت السماء تمطر.. لم تكن تعلم إن كانت السماء تبكي، أم أنها هي من تمطر من الداخل.

لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا:

في داخلها ثمة شيء انكسر مع المرايا ، و خليط من المشاعر خرج من روحها للتو .. **هل هو النور المكسور ؟!.**

****

كانت السماء تمطر بدورها بهدوء فوق مدينة **آكس-أن-بروفانس**، حيث وصل إلياس إلى أحد المنازل القديمة التي وُصفت له في رسالة مجهولة، وجدها مطويّة في جيبه الداخلي دون أن يتذكر كيف وصلت إليه .. الرسالة كانت قصيرة :

في بيت رقم 9 من شارع ميرابو، خلف المكتبة العتيقة، ستجد من ينتظرك منذ زمن .. منقذك

طرق الباب ثلاث مرات.. انتظر عدة دقائق .. طرق ثانيةً .. لكن لا رد.. وحين همّ بالابتعاد، انفتح الباب بصرير خافت، وكأن أنفاس المكان تسحبه إلى الداخل .. دخل .. لم يكن في

المكان ما يوحي بالحياة : ستائر سميكة، روائح قديمة، ونور شمعة يتراقص فوق طاولة وحيدة .. وعلى الطاولة، مجلد جلدي عتيق ، منقوش عليه ذات الرمز : **وردة داخل مثلث داخل دائرة مفتوحة من الأعلى** ..

فتح إلياس المجلد، وإذا به يضم نسخًا قديمة من مخطوطات الأخوية .. ملاحظات مكتوبة باليد، خرائط لأماكن لا يعرفها، ورسومات لطاولة غريبة كانت تُستخدم كما يبدو في **جهاز تفريغ الندم** ..

لكن ما أثار فزعه كان الملحق في نهاية المجلد : رسالة بخط رفيع ومائل، كأن من كتبها كان يرتجف :

احذروا العقل المهيمن .. لقد بدأ في استخدام الجهاز لإعادة تشكيل الندم و ليس فقط لتفريغه.. ما فعله في مونتسيرات لن يُغتفر.. إن لم يتحرك أحد من الداخل، سيفقد العالم نفسه

وقعها اسم جديد على الأحداث : **كاسيان**.

لم يكن إلياس قد سمع بهذا الاسم من قبل .. لكن ثمة إحساساً خفياً شدّه إليه، إحساسًا لا تفسير له، بأنّ هذا الرجل يحوم في الظلال منذ بداية رحلته، يراقب ويحرّك خيوطًا دون أن يُرى.

و الذي استحوذ على عقله بالكامل كان آخر صفحة من المجلد .. ورقة صفراء مهترئة مكتوبة بحروف صغيرة تكاد تصرخ محذرة ..

(((في زوايا عتمة العقل، حيث تتلاشى الحدود بين الألم والذاكرة، تنسج هندسة الندم خيوطها بهدوء قاتل .. تُقدم نفسها كحصان طروادة للحريّة، كالبوابة التي ستفتح أمام الإنسان باب الخلاص من أعباء الندم التي تثقل قلبه وروحه. ولكن ما هي الحقيقة ؟

الحقيقة أنها ليست سوى واجهة مزيفة، قناع يتلألأ بنور كاذب يخفي خلفه ظلامًا عميقًا .

هندسة الندم ليست تحريرًا من الماضي، بل إعادة هندسة

الماضي نفسه. إنها ليست إلغاء للندم، بل تحويره وتطويعه، بحيث يتحول من شعور داخلي إلى آلية تحكم، أداة تُعاد صياغتها لتصبح سلاسل جديدة غير مرئية .

تستغل هذه الهندسة ضعف النفس البشرية، ذلك الخيط الرفيع بين التوبة والذنب، بين الرغبة في التغيير والرغبة في السيطرة. تخدع الإنسان بأنه سيخرج من سجن الندم، بينما في الحقيقة تُدخل روحه في زنزانة أكثر دقة وتعقيدًا، حيث

تصبح مشاعره وبرمجته العقلية ملكًا لمن يحكم هندستها .

في هذه المرحلة، يتحول الندم من تجربة إنسانية أصيلة إلى رمز استعباد معاصر، حيث تُزرع داخل الإنسان مشاعر مصممة بدقة، تُعيد تشكيل ردود أفعاله، وتخنق فطرته الحقيقية. ما يُوهمه بأنه حرّ، هو في الواقع أسير شبكة معقدة من الشعور المُبرمج.

وهكذا، تتنكر هندسة الندم في زي المنقذ، لكنها في جوهرها

أكثر من ذلك : هي إعادة تعريف الحرية، لكنها حرية مشروطة، حرية مفروضة، حيث يتحول الإنسان من كائن ذي إرادة إلى نسخة مصممة، يُحدّد مصيره من قِبل من يتحكم في تلك الهندسة الغامضة .

هذه ليست حربًا على الألم، بل استغلالٌ له. ليست دعوة إلى الخلاص، بل إعلان بداية استعباد جديد، يحمل أقنعة أكثر دقة، وأدوات أكثر تطورًا، تجعلك تعتقد أنك حر بينما تُغلق الأبواب خلفك بهدوء لا يُسمع ..)))

و في هذه اللحظة، أدرك إلياس أن الطريق الذي سلكه، لم يعد طريقًا للبحث عن ذاته فحسب، بل أصبح طريق نجاة... نجاة له و لشخص لا يعرفه بعد، لكنه في يومٍ ما، سيتمنى أن ينقذ ه.. بل ربما ما هو أبعد من ذلك .. نجاة للبشرية جمعاء

أغلق المجلد الغامض لكن قبل أن يغادر المنزل، لمح عبر زجاج النافذة المقابلة وجهًا لرجل يرتدي معطفًا طويلاً وقبعة منخفضة تغطي عينيه.. لم يتحرك .. لم يلوّح ... فقط ظل يراقب، ثم اختفى مع أول وميض برق .. **كاسيان !!**

الفصل الحادي عشر

أخوية النور المكسور

هامش .. من هي أخوية النور المكسور ؟

في قلب الجبال المظلمة، وفي دهاليز العقول التي استهلكها الحنين والانكسار، نشأت أخوية النور المكسور ليس بوصفها طائفة، بل كأداة كونية موجهة وفق تصورها هي، ولدت من رحم السقوط الجماعي للبشر في فخاخ مشاعرهم ، لم تكن غايتها خلاصًا، بل تفكيكًا جذريًا للإنسان كما نعرفه، وإعادة تشكيله على هيئة لا تجرّه عاطفة ولا تسقطه لحظة ضعف.

هندسة الندم لم تكن اختراعًا تقنيًا وحسب، بل كانت مشروعًا وجوديًا صممته الأخوية كما يصمم الجراح مشرطه ، لا ليجرح، بل ليكشف الداخل مهما كان مشوهًا .. أرادت الأخوية خلق أداة لا تكتفي بفضح الخوف، بل تجرده من قدسيته .. أداة قادرة على سحب أعمق طبقات الندم إلى السطح، لا لتداويها، بل لتعيد برمجتها على نحو يحوّل الألم إلى طاقة طيّعة، لا ذاكرة دامية.

الماضي بنظرهم عبء ثقيل يمكن محوه ، لذلك تؤمن الأخوية أن أكبر خطايا الإنسان ليست أفعاله، بل شعوره

بالألم حيالها .. فالندم، في نظرهم، ليس نبلًا، بل سلسلة ثقيلة تشلّ الحاضر وتسمّم المستقبل .. ولذا، سعت إلى فصم العلاقة بين الفعل وإحساس الذنب، عبر خلق بيئة تجريبية حسيّة ـ غرفة هندسة الندم ـ حيث يعاد توجيه الشعور وتفكيك رموزه.

في داخل الغرفة، لا قيمة للزمن ، الماضي والحاضر يندمجان ، ويُعاد سرد الوقائع بطريقة تنزع عنها كل معنى أخلاقي .. لا يوجد **" خطأ "** في نظر العقل المهيمن الذي يتزعمهم ، بل فقط انحراف في التفاعل العصبي يمكن تصحيحه.

أما غاية الأخوية الجوهرية فهي كسر إرادة القلب منشأ المشاعر كلها .. فإذا كانت السلطة التقليدية تسعى للسيطرة على الجسد أو الفكر، فإن أخوية النور المكسور أرادت شيئًا أعمق : السيطرة على القلب .. ذلك الحيّز الفوضوي، الذي لا يخضع للمنطق، ولا ينصاع للقوانين، ولا يعترف بالمقايضة.

الأخوية بدأت العمل على مشروع هندسة الندم منذ نصف قرن ، استقطبت كفاءات علمية إلى صفوفها لتحقيق هدفها (مهندسون ، أطباء ، تكنولوجيون ...) على التوازي مع ذلك و على خلفية استشارات نفسية كثيرة قررت تأهيل شخص معين منذ طفولته ليكون القربان المثالي لاختبار مشروعها لأول مرة كحدث فاصل في التاريخ البشري ..

*****

قبيل بدء الجلسة، احتشد الجميع في القاعة الدائرية تحت الأرض .. كانت القبة مبنيّة من حجر بازلتي بلون الأبنوس، تتدلّى من أعلاها سلسلة حديدية تحمل شمعة حمراء واحدة، لا تهتزّ رغم الهواء المتحرك بحرية في الأجواء مع أنفاس الموجودين.

أمام كل عضو من الأخوية، إناء حجري صغير مملوء بسائل فيروزي يعكس الضوء كمرآة .. غمس كل منهم إصبعه، ورسم دائرة معكوسة على جبهته، يتبعها ترميز شبيه بالنصل في مركزها .. ثم رتّلوا بصوت خفيض :

In obscuro veritas… per florem fractum lucem flectimus… temporis

sinus aperitur ....

(في الظلمة تكمن الحقيقة... عبر الوردة المكسورة نلوّن النور ... و جيب الزمن يُفتح)

جلسوا حول الطاولة الكهرمانية ، الدائرية، المحفور في منتصفها وردة بثلاث طبقات داخل مثلث ودائرة غير مكتملة ، كانوا يرتدون عباءات مصنوعة من قماش رمادي كثيف محشو بألياف رماد الحروق الطقسية .. الأقنعة المعدنيّة خالية من الفم، ذات شقين للعينين فقط، والرمز الوحيد المنقوش على كل قناع هو العلامة الثلاثية للأخوية.

العقل المهيمن، ذو القناع الأسود الكامل، بدأ الحديث :

= رافنر لمس اللوح .. هو الآن متصل بالجناح الوردي .. لم يعد يملك أي ذرة من إرادته بذلك ..

همست آنيا غروسنر ، المرأة الوحيدة بينهم، بنبرة تنزف اعتراضاً :

= أرى أن التوقيت غير مناسب .. لقد قابلته بنفسي في أنجيه و وجدته غير مستعد .. يجب أن تؤجل التجربة حتى ينضج الندم في أعماقه جيداً ..

رد عليها آخر :

= كل قرار يبنى عليه خطر أكبر.. الضوء بدأ يتحرّك .. تفريغ الندم ليس حالة نظرية، بل قنبلة إذا لم نفجرها بأنفسنا ستنفجر من تلقاء نفسها في الوقت المحدد لها و سيصبح الياس خنجراً في خاصرتنا .. إما الآن أو نقتل الياس ..

أومأ العقل المهيمن رأسه بالموافقة ..

= محق .. الياس إن لم يخضع للتجربة النهائية سيصبح أكبر سلاح في وجهنا .. لقد بات يعرف أكثر مما ينبغي بعد أن تجاوز العتبة ، و لم يعد هنالك مجال للمناورة أو الرجوع ..

عندما وصل الحديث إلى هذه الحافة الحرجة نهض **ميكاييل كاسيان** ، بهدوء .. خلع قناعه .. ليظهر بين الضباب رجل أكثر غموضاً من القناع ذاته ، رجل خاض معارك داخلية أكثر مما عاشها في العالم الخارجي .. وجهه طويل قليلًا، تكسوه التجاعيد عند زاويتي العينين وفي الجبهة، وكأن كل خط فيه يروي قصة تردد أو قرار متأخر.. عيناه بلون رمادٍ بارد، لا تُظهران ما يشعر به تمامًا، بل تلمحان إلى صمت طويل يسكنه .. شعره الكثيف قليلًا عند الأطراف يتخلله الشيب، لكنه لا يكترث لإخفائه، كأنما يعلن قبوله بالزمن.

كاسيان هو أحدث عضو في الأخوية ، انضم إليها قبل عام فقط، بعد أن استدرجته أطروحاتها عن تجاوز الألم الإنساني وتطويعه و كأنه وجد فيها فرصة نجاة له قبل أي شخص آخر بعد أن خسر زوجته في حادث مأساوي ملتبس حمل نفسه مسؤوليته فنهشه الندم حياً .. لم يكن يومًا تابعًا، بل رجل فكر وتجريب، باحث عن إجابة لسؤال لم يُطرح بعد ..

ورغم ذكائه الحاد، إلا أنه ظل على هامش الدائرة الحقيقية للأخوية، لا يعرف عن أسرارها العميقة سوى القشور.. شيئًا فشيئًا، بدأ يدرك أن ما وُعد به لا يشبه ما يُنفّذ على الأرض.

في بداية انضمامه، كُلّف بمتابعة مشروع خاص بدا له وقتها

مبهمًا، إلى أن اكتشف لاحقًا أنه ساهم - عن غير قصد - في برمجة إلياس وتكييفه ليكون مادة خام لهندسة الندم .. ومنذ تلك اللحظة، تغيّر كل شيء فقد تشكل ندم اكبر كمضغة في روحه..

و الندم عند كاسيان ليس صخبًا ولا دموعًا، بل حضور دائم في صمته .. يعاقب نفسه بالصمت، بالانسحاب، وبالمراقبة من بعيد .. يشعر أنه ساهم في جريمة لم يدرك حقيقتها إلا متأخرًا، وأنه بات مسؤولًا عن إنقاذ من ساعد في تقييده.

كتب في مفكرته :

كنت أظن أنني أبحث عن حرية للإنسان، فصنعت قيدًا جديدًا لروحه

أصبح وجوده في الأخوية مزيجًا من التمويه والمقاومة. يجهل الكثير من أسرارها، لكنه بدأ يدرك ما يكفي ليشعر بالخطر، ويشعر أن عليه حماية إلياس، ليس فقط من المنظمة... بل من كل ما زرعوه في داخله.

نظر كاسيان إلى الجميع بنظرات ملتهبة و قال بنبرة حادة تكاد تبتر الفولاذ :

= أحذركم .. أنتم تتصرفون ككهنة عميان في معبد ملعون .. أنتم تراقبون و لا تبصرون ... أنتم تختبئون فحسب خلف رماد الطقوس، لقد فرغتم الأخوية من مضمونها ..

رفع العقل المهيمن نظره نحوه بهدوء و تهديد معاكس :

= تحذّرنا، يا كاسيان؟

= أحذّركم من أنفسكم .. إلياس ليس عدوًّا كي نقتله .. ما الذنب الذي ارتكبه يستحق هذه العاقبة ؟! هل نحن طائفة إجرامية أم كوة يمر منها النور إلى البشرية ..

صاح أحدهم :

= إن كاسيان يتمرد و يخالف الميثاق .. لو أنصتنا له ، سيفسد التوازن الذي حافظنا عليه منذ الألفية الأولى .. كلنا وافقنا على اتخاذ الياس كقربان من أجل البشرية و لا مجال للتراجع الآن ..

رد كاسيان بجرأة و حزم :

= التوازن ؟ أنتم تقصدون الجمود .. العالم يتغيّر، وأنتم تتمسّكون بظلّ لا جسد له .. الأخوية تنسلخ رويداً رويداً عن جوهرها الأساس الذي تشكلت عليه .. هندسة الندم سراب واهم لن يوصلنا إلى شيء .. إن طبقت ستفنى البشرية ..

ردت آنيا بصوت مفعم بالضغينة ..

= بل هي منجاة البشرية .. لا خلاص إلا بزوال الندم الذي ينهش الروح و يسبب اليأس و الفشل ، و الياس هو المنقذ لنا و للبشرية .. الحجر المركزي الذي يُسقط قوس العصور كي يعاد بناؤه على نحو أفضل و أكثر كمالاً ..

اقترب كاسيان من الطاولة و طرق عليها بقوة بيده العارية.

= في الحقيقة كل ما بدر منكم خلال العام المنصرم يوحي بأن لكم غايات خبيثة أبعد من هندسة الندم .. غايات تستعبد الإنسان بدلاً من أن تحرره ، بل أخشى ما هو أخبث من ذلك .. لذا فأنا أنسحب .. و لن أسمح لكم بإيذاء إلياس .. من يمدّ يده نحوه، سأعدّه عدواً لي ... ولما تبقّى من النور في هذه الأخوية ..

وقف الجميع .. مع توتر ملموس ساد في الغرفة .. أما العقل المهيمن لم يتحرك من كرسيه .. فقط قال بنبرة عميقة :

= حين تنشقّ الدائرة لا تعود كاملة .. ما تفعله ليس خروجًا، بل خيانة ، و كان ينبغي أن نتوقعها من عضو حديث العهد بيننا .. كانت آنيا محقة في تحذيري منك .. على كل حال أنت تعرف مصير الخائن، يا كاسيان ..

اقترب كاسيان أكثر، وضع قناعه على منتصف الطاولة.

= أنا لا أخون .. أنا أحاول إنقاذ ما نسيتم أنه الحقيقة .. بخروجي الآن **أكسر الضوء و أجعل الدائرة مفتوحة** ليخرج الندم منها .. أنا أفعل ما يمليه علي العقل لا الأهواء أيها العقل المهيمن كي لا أندم بشدة لاحقاً كما ستندمون جميعاً ..

قالت آنيا بصوت جليدي يجمّد النار :

= إذن، فلننتقل إلى **برتوكول التنين** سيادة العقل المهيمن ، فالمنشقون باتوا قريبين للغاية من الياس و إن أقنعوه بأفكارهم سيصبح بمثابة مسدس في صدغ الأخوية ..

علت أصوات الجميع بالموافقة ..

استغرق العقل المهيمن بالتفكير للحظات ثم اتخذ قراره الذي بدا أوضح من أن يحتاج للتفكير بعد انشقاق كاسيان ، نهض و أطفأ الشمعة الحمراء كطقس معروف يعلن دخول الأخوية في حيز التنفيذ الأخير أو ما يعرف ببروتوكول التنين عقب التمزق المفاجئ الذي طرأ عليها ..

انسحب كاسيان حانقاً وسط الظلام الدامس ... وبقي اسمه يتردّد في الصمت بين الموجودين كخائن للأخوية نبذ العهد و

ستنبذه الأخوية و تحاسبه ..

الفصل الثاني عشر

المختار الذي لا يختار

كان إلياس قد حطّ رحاله في **نارا / اليابان** بعدما تكررت أمامه الإشارات .. عبارة بيوتر الغامضة، رموز وجدت طريقها إليه في الوثائق القديمة، والقصاصة اليابانية التي وُضعت دون تفسير في معطفه ذات صباح و تذكر عنواناً محدداً .. لم يكن يعرف على وجه الدقة ما الذي يسعى إليه، لكن إحساسًا داخليًا كان يدفعه نحو الشرق، كما لو أن جسده سبق روحه بخطوة نحو ما لم يُسمَّ بعد.

وصل إلى الضريح المهجور عند الغروب .. المكان يشبه تجويفًا في الزمن، كل شيء فيه يهمس بالسرّ : الأعمدة الخشبية المعقودة بجذوع الكافور، درجات الحجر التي أكلها الطحلب، التماثيل البوذية المغطاة بخيوط العنكبوت، والعتمة التي لا تشبه ظلام الليل، بل ظلام النسيان.

و في قلب الضريح، كانت هناك لوحة حجرية صغيرة، محفور عليها بخط ياباني قديم :

إلياس رافنر ، 7 يوليو 1994

ارتبك ، حدّق فيها طويلاً .. الخطّ، التاريخ، الاسم ... كل شيء كان دقيقًا حد الرعب .. لكن شيئًا في أعماقه قاوم التصديق.

ربما مزحة .. خدعة .. أثر تركه أحد من الأخوية لإرباكه؟

ثم جاء الصوت هادئًا، مشوبًا بصدى حنين قديم :

= ما خُطط له منذ الولادة لا يمكن النجاة منه بسهولة ..

استدار ببطء، وها هو يقف هناك، نصفه في الظلال، ونصفه في النور، كما لو كان شعار التاوية عائدًا من زمن سحيق. كاسيان.

الظل الذي تبع إلياس دون أن يعرف، اليد الخفية التي سحبت الخيط حين كان على وشك السقوط.

اقترب منه كاسيان بصمت، ومدّ يده بملف نبيذي اللون .. أمسكه الياس بيد مرتجفة و أخذ يقلب فيه ..

كان عبارة عن تقارير قديمة يعود بعضها إلى عام 1997.. صور شعاعية لدماغ طفل .. تعليقات علمية مكتوبة بالفرنسية ، ختم الأخوية .. وفي الزاوية السفلى كتب :

Subiectum : Elias rafner – Codex: N-RM 011 – Aptus ad experimentum

(الموضوع : إلياس رافنر – الكود – N-RM 011 : مؤهل للتجربة)

لم يحتمل إلياس ما قرأه فقد فهم بذكائه كل شيء بعد أن ربط الخيوط في عقله الهندسي الفذّ ..

لم تكن الصدمة فقط في أن يُختار منذ دخل الميتم ابن ثلاث سنوات ، بل في أنه لم يكن في أي لحظة حرًا ، بل كان مراقباً على الدوام من بعيد لتقييم مدى ملاءمته للتجربة ..

سقط على الأرض، كأن عموده الفقري انكسر فجأة، دفن رأسه بين راحتيه، وانفجرت الدموع في صمتٍ موجع.

شهقاته لم تكن نحيبًا، بل انفجارات هواء خرجت من صدره كما تخرج الأرواح أو الكامي اليابانية من فم الموتى.

كان جسده كله يرتجف و كأن الدائرة تحولت إلى رحم انبثقت مياهه ليولد الندم منه بأقسى صوره ، بولادة عسيرة ..

كل شيء ينهار داخله دون صوت .. كأنه مبنى شُيّد من أوهام، وها هي الحقيقة تهب عليه كريح لا ترحم، فتجعله

ينهار دون أن تثير غبارًا.

قال لنفسه بانكسار لم يجربه أحد من قبله :

(منذ متى و أنا دميتهم ؟

منذ طفولتي؟

منذ أن كنتُ أركض خلف ظلّي في الميتم ؟

منذ أن كنتُ أصدّق أن الأحلام محض خيال لا أكثر؟

منذ أن كنتُ أظن أن العالم يتركك تنمو كيف تشاء، لا كما يشاء هو؟

كل نظرة، كل خوف، كل خفقة قلب ظننتها لي وحدي ... كانت مُراقَبة .. مُسجَّلة.

كل تنهيدة صدرت عني وأنا أجهل معنى هذا العالم، كانت تُحلّل، تُفكَّك، تُرمَّز.

يا الله... كم كنتُ حرًّا وأنا عبد.

كم ظننتني أملك نفسي، وأنا لست إلا معادلة في دفتر أحدهم.

أيعني هذا أن حزني الأول كان مجرَّد تجربة ؟

أن موت والديّ... لم يكن خسارة، بل أداة ؟

أن كل انكسار مررتُ به كان لبنة في بناء هندسة أخرى، ليست لي، ولا لأحد ... بل لوهم أكبر منّا جميعًا ؟

كيف لم أنتبه؟

منذ متى كان قدري محاطًا بعينٍ تكتب ولا ترحم؟

كم مرّة بكيت في الظلام، وهم كانوا يراقبونني، لا ليرأفوا، بل ليُضيفوا سطرًا في تقريري الشعوري ؟

أنا لست أنا ..

أنا مختار منذ البدء .. لا لأنني مميّز، بل لأنني هش .. لأنهم رأوا في ضعفي فرصة.

يا لسخرية العالم، أن تُختار لا لأنك قوي، بل لأنك قابِل للانكسار بشكل جميل.

أين أنا ؟ من أنا ؟

هل لي أن أخرج من نفسي ؟ أن أفرّ من هذا الجسد الذي لم يعد لي ؟

هل أستطيع أن أصرخ ؟

أن أصرخ بصوت ليس مرصودًا ؟

أن أبكي بكاءً لا يُحوّلونه إلى بيانات ؟

أن أختبئ ... في ركنٍ لا تصل إليه الأخوية ولا هندستها ؟

لقد مات شيء فيّ الآن ..

لا أعرف اسمه، لكنه كان ما يجعلني أستيقظ كل صباح دون خوف ، و وُلد شيء آخر مكانه.

شيءٌ لا يثق .. لا يصدق .. لا يريد أن يتذكّر.

وإن كانت الحقيقة قد كُشفت لي اليوم ...

فما الذي بقي منّي لأحتفظ به؟)

خفت النحيب تدريجياً بعد دقائق كتسونامي أتى فدمر كل شيء ثم انحسر بهدوء كأنه لم يفعل شيئاً ..

اقترب منه كاسيان و ربت على كتفه برفق و تعاطف ثم همس :

= أنا كاسيان ، عضو منشق عن الأخوية .. أراقبك منذ عام و أردت أن أحذّرك منذ ذلك الحين ... لكني خفت أن تنكسر لذا حاولت إبعادك عن التجربة بشكل غير مباشر و عن بعد ، لكن لم يبق الآن متسع من الوقت لذلك ، علي أن أصارحك بالحقيقة كي تتخذ قرارك بسرعة قبل أن يتخذوه عنك مرة أخرى .. فقد بدأت المرحلة الأخيرة من تجربتهم منذ قرابة الشهر .. استدرجوك إلى الدير .. قابلتك الأرملة السوداء آنيا غروسنر .. و سيتابعون خطواتهم وفق ما خطط لها .. حاولت أن أساعدك .. أرسلت فالسكي فدفع حياته ثمناً لذلك ، و لم يبق أمامي من خيار سوى اللقاء المباشر بيننا هنا ..

رفع إليه إلياس وجهه، عيناه محمرتان، مجوفتان ككهفين :

= أنا مجرد دمية ؟ مجرد... تجربة ؟ حياتي كلها مسروقة ؟ ،كيف ستساعدني الآن ؟ هل يمكننا إعادة الزمن إلى الوراء لأبدأ من جديد كإنسان طبيعي ؟

أجابه كاسيان بأسى :

= لا .. لا يمكننا فعل ذلك .. لكن يمكنك الآن اتخاذ قرارك في الحاضر كي ترسم مستقبلك كما تريد ، و أمامك خياران لا ثالث لهما في هذه اللحظة :

إما أن تتراجع و تترك كل شيء خلفك، فتعود إلى حياة عادية تتصالح فيها مع ماضيك ، و تتقبل تجربتك المريرة .. أعلم ، هذا ليس بسهل على الإطلاق ...

أو ..

سكت لحظة، قبل أن يُكمل :

= تستخدم هندسة الندم .. فتمحو ذاكرتك .. تنسى كل شيء... لكنك ستولد من جديد إن حالفك الحظ و نجوت من التجربة ، فتعيد تشكيل حياتك كما تريد ..

ساد صمت ثقيل لدقائق و الياس يضع رأسه بين يديه يفكر :

(هل يمكنك أن تحب ماضيك إذا لم يكن لك ؟

هل يمكنك أن تحتمل ذكريات لم تكن نتائج قراراتك، بل نتائج تصميم ؟

كيف أعيش مع نفسي، وأنا أعلم أن نفسي صُنعت لي ... لا بي ؟

كل خطوة ظننتها حرة، كانت مكتوبة في هامش ملف.

كل دمعة ظننتها إنسانية، كانت تقويمًا لتجربة.

ضحكي، حزني، وحدتي ... حتى صمتي، لم يكن صمتًا حقيقيًا، بل زمنًا ميتًا بين التجارب.

أنا لا أحتمل هذا ...

لا أحتمل أن أكون مجرّد نتيجة معمل مغلفة بجسد.

أن أُعامَل ككائن قابل للبرمجة، للاختبار، للتطوير... دون أن يُسأل : أتريد ؟ أتحب ؟ أتخاف ؟

إنهم لم يسرقوا طفولتي فقط ...

بل سرقوا حقي بالاختيار.

جعلوني أؤمن أنني أعيش، بينما كنت أُستهلك.

جعلوني أبحث عن المعنى، وهم الذين كتبوه بخطّهم قبل أن أتعلّم الحروف.

هل أستطيع أن أعيش وأنا أعلم أنني كنت فأر تجارب ؟

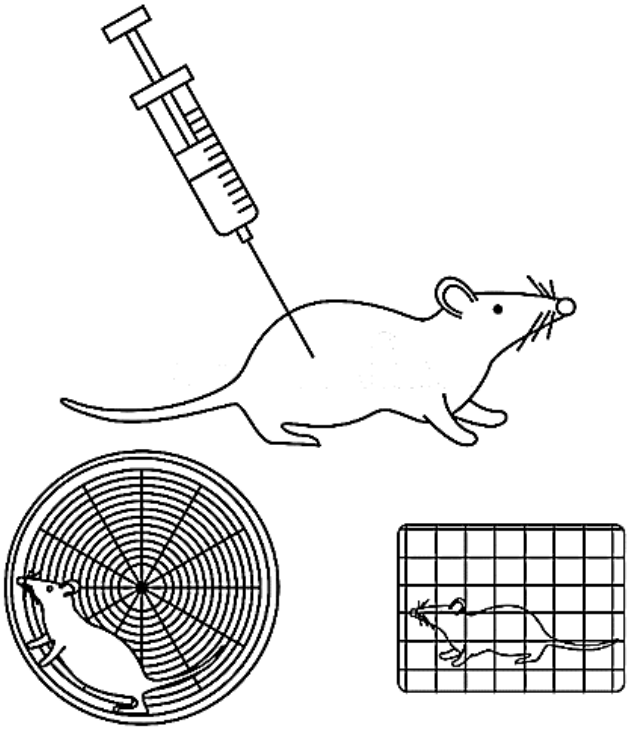

أنني لست إنساناً، بل دمية ؟

أيمكنني أن أنظر في عينيّ في المرآة ولا أرى فيهما خيوط اليد التي شكّلتني ؟

ربما ... النسيان ليس ضعفًا.

ربما النسيان هو العدالة الوحيدة حين يُصبح الماضي خيانة وجودية.

حين لا تعود الذاكرة تذكارًا ... بل قيدًا في يد جلاد خفي.

أن أنسى ... يعني أن أتحرّر.

أن أقطع الحبل السري الذي ربطني بهم دون إرادتي.

أن أكون صفحة بيضاء، لا ليكتبوا عليها من جديد، بل لأكتب أنا ... للمرة الأولى.

لكن ... هل أملك الجرأة ؟

أن أنسى كل شيء ... أن أقتل الماضي بيدي ... أن أُولَد بلا شهادة ميلاد ؟

أن أغادر ذاكرة لم تكن لي من الأساس ... وأن أبدأ، لا كمن نجا، بل كمن خُلق من رماد ..

إنهما خياران أحلاهم مرّ .. لكنّ المرّ يبقى بلا شك أكثر حلاوة من العلقم !!)

وقف ، مسح دموعه بكمّ قميصه، و تمتم، كمن يسلّم روحه لقبضة الجلاد :

= سأخوضها. . ما عاد في قلبي ما يكفي لأتراجع ..
سأستخدم الجهاز الذي صممته الأخوية ... فإن لم أعد كما كنت، لربما أجد السلام ... و لو لوهلة ..

في ظلال الغابة اليابانية، كان الليل قد أطبق تمامًا، والريح تتسلل بين الأشجار كأنها تسري في أعصاب العالم .. و بينهما، وقف كاسيان يراقب ظهر إلياس يبتعد، يعرف أنه لن يعود كما كان، لكنه يدرك أيضًا ... أن في هذا الدمار احتمال ولادةٍ جديدة .. لقد أدى أول واجب تكفيري لذنوبه تجاهه و هو إخباره الحقيقة كما هي لا كما تكذب الأخوية عليه ، كي يقنعه بالعدول عن التجربة .. هو لن يسمح للأخوية أن تؤذيه بلا شك لكنه سيدعمه في قراره الذاتي حتى النهاية .. و سيكون سنداً لظهره متى ما تراجع عن قراره كي يحميه من أذى هذا التنظيم المتوحش ..

الفصل الثالث عشر

زقاق الأقنعة

وصلت نور إلى **براغ / التشيك** في المساء، تائهة بين ظلال الأزقة القديمة وصوت العربة التي سارت بها وسط المدينة العتيقة. كل ما كانت تملكه هو العنوان الذي ظهر على مرآة منزل المرايا في بودابست ثم اختفى قبل أن تغادر الغرفة الغامضة ..

Ulička duší -- Praha

زقاق الأرواح / براغ

توقفت أمام بناء حجري منخفض غير لافت للنظر.. الباب الخشبي الثقيل انفتح ببطء، دون أن تمسه، وكأن المكان كان بانتظارها.. في الداخل، اتسعت عيناها بدهشة .. جدران ممتلئة بأقنعة معلّقة، كل واحدة منها تحمل تعبيرًا مختلفًا : الندم، الغضب، الخوف، التسامح ...

اقتربت من قناع برونزي، كُتب تحته :

صاحب هذا الوجه اختار أن ينسى، فاختفى عن الوجود

متحف الأرواح لم يكن مجرد مكان للعرض، بل كان مكانًا ينبض بطاقة شعورية خفية .. خرج رجل نحيل كعود البامبو ، أنيق الزي، بشرته شاحبة وعيناه فيروزيتان ، قال بهدوء دون أن تسأله :

= الأقنعة تخفي آلامنا حين نعجز عن حملها ... وأنتِ تبحثين عن إجابات لا تُعطى، بل تُنتزع من تحت الأقنعة ..

قادها الرجل إلى غرفة مظلمة ذات جدران من مخمل أحمر.

في الداخل، منصة دائرية، وفي وسطها جهاز زجاجي كروي يشبه **بلورة سحرية** .. اقتربت منها و ألقت نظرة خطفة .. ظهرت داخل البلورة صورة لإلياس يمشي وحيدًا في ممر ضيق محفوف بالدموع.

شهقت نور ثم همست :

= كيف ؟

أجاب الرجل :

= لا يهم كيف ؟ .. ما يهم هو من ؟ إنه يسير نحو قدرٍ لم يختره ... فليس كل من اختير، اختار ..

وما إن أنهى جملته حتى انطفأت الأنوار فجأة، وغمر ظلام ثقيل الغرفة .. لفّ المكان ضباب رمادي كثيف، وكأن الأرواح القديمة تنهض لتتنفس لحظة جديدة .. سعلت نور وهي تحاول تلمّس طريقها نحو الخارج، لكن فجأة لاح شعاع ضوء يتيم ضيّق و حاد، سقط على أحد الأقنعة فبدأ القناع بالكلام رغم صمت الجمود عليه .. ثم أخذ شعاع النور يتنقل من قناع إلى آخر يتابع حديث من سبقه :

في معترك الوجود الإنساني، تبرز الأقنعة لا كخداع بصري بسيط، بل كأدوات معمارية دقيقة لبناء الذات الاجتماعية. نحن لا نضع الأقنعة لنخفي ما نحن عليه فحسب، بل لنحمي هشاشتنا من سكاكين الواقع، ولنمنح الآخرين صورة نتحكم نحن في ألوانها وحدودها. القناع، إذًا، ليس نقيض الحقيقة دائمًا، بل وسيلتنا للبقاء في عالم يتغذى على الانكشاف..

المشاعر، في المقابل، كائنات مائية بطبعها، تنساب خارج حدود اللغة والمنطق، تعبر الوجوه قبل أن تعبُر الكلمات، وتفضحنا رغمًا عن رغبتنا في التخفي. من هنا تبدأ المعركة الخفية : الأقنعة تحاول أن تُهذّب الفيض العاطفي، أن

تُخضِعه لصورة مقبولة، أن تُقنِعه بالبقاء في الظلال. فنرتدي قناع القوة حين يتصدّع داخلنا جدار الطمأنينة، ونلبس قناع السخرية حين تمور فينا موجات الوجع

لكن إلى متى؟ وإلى أي مدى يمكن للقناع أن يصمد أمام الزلازل التي تثيرها المشاعر؟

عندما تُهندس الندم، يصبح القناع معمارًا للعذاب

هندسة الندم ليست فكرة عن استرجاع الزمن الضائع، بل عن إعادة ترتيب جراحه. إنها محاولتنا العبثية لتفسير ما لا يُفسَّر: لماذا فعلنا ما فعلنا؟ ولماذا لم نكن شخصًا آخر في لحظةٍ ما؟ القناع هنا يأخذ شكلاً أكثر قسوة، إذ يصبح أداة دفاعية ضد اجتياح الذنب، وساحة صراع بين ما نُظهِره كندمٍ ناضج، وبين ما نخفيه من شعور بالضياع والانكسار

الوجوه المندمجة في القناع تصبح وجوهًا زائفة لا لنُخادع بها الآخرين، بل لنُخادع بها أنفسنا .. نبني داخلنا بنية هندسية معقدة، تُقسّم الشعور إلى مساحات : "ما يمكن تحمّله"، و"ما يجب دفنه"، و"ما لا يُقال"، و"ما لا يُسامَح". وهكذا، نُشيّد متحفًا داخليًا من الأقنعة، كل واحد منها يحمل ابتسامة زائفة، نظرة مصطنعة، أو صمتًا أعمق من الصراخ

وهنا تكمن العبقرية المأساوية : أن نندم لا لأننا فعلنا الخطأ، بل لأننا صرنا غرباء عن أنفسنا بسبب ما حاولنا إخفاءه. إن أقسى ما في هندسة الندم هو أنها تُجبرنا على أن نعيش داخل

قناع لا نستطيع خلعه دون أن نخلع معه جلد أرواحنا

التحرر من القناع، إذن، ليس فضيحة، بل ولادة

أن تبكي أمام مرآتك لا يعني أنك ضعيف، بل أنك قررت أخيرًا نزع طبقة من الأقنعة. أن تواجه ندمك بلا تبرير، بلا هندسة، بلا هندام، هو أن تبدأ رحلة العودة إلى ذاتك الأصلية، تلك التي لم تتقن بعد ارتداء الأقنعة، لكنها كانت أكثر صدقًا، أكثر وجعًا، وأكثر حياة

إن المشاعر الحقيقية لا تحتاج إلى أقنعة، وإن الإنسان الذي يتصالح مع ندمه لا يعود بحاجة إلى هندسته، بل يتركه يتسرب كما يشاء، ويمنحه شكلًا لا يُصمَّم، بل يُعاش

في النهاية، القناع ليس عدوًّا، لكنه ليس بيتًا أيضًا

هو معبرٌ، مرحلة، قنطرة نمرّ عبرها ونحن نتعلم كيف نكون أنفسنا دون أن ننهار. المشاعر وحدها، بكل فوضاها، هي الوطن. والندم حين لا نُهندسه، يصبح خريطة لقلوب لم تتوقف عن النبض رغم كل شيء

فهل تجرؤين آنسة نور على نزع قناعك في المستقبل عندما تحين لحظة الحقيقة الحاسمة ؟

ارتجف قلبها بشدة كأنها رأت قدرها مكتوبًا بلغة لا تفهمها بعد ..

هنا سقط شعاع النور على مخرج الغرفة ، فتبعته نور إلى الخارج .. فتحت الباب دون أن تلتفت للخلف، وغادرت المتحف بخطى متوترة، تركض في الأزقة الضيقة، هاربة من شيء لا تعرف إن كان ينتظرها أم يسكنها.. و تبدلت الأقنعة على وجهها .. خوف .. قلق .. فضول .. دهشة .. حيرة .. أمل و أخيراً قناع الابتسامة أمام مارة لا تعرفهم و لا تريد لهم أن يعرفوها ..

لم يكن ذاك الرجل الذي استقبل نور في غرفة الأقنعة سوى شخص آخر انشق عن الأخوية .. **ليون فاليس** أو الرجل ذو العين الزجاجية ، كان **أخصائيًا في علم التعبير الانفعالي،** يُحلّل ملامح الوجه ليفكّ شفرات الأقنعة الشعورية التي يختبئ خلفها البشر.

انضمّ إلى الأخوية معتقدًا أنه سيشارك في مشروع لفهم الندم لا لصنعه، لكنه سرعان ما أدرك أنهم لا يدرسون المشاعر بل يُفرّغونها.

حين حاول الانسحاب وكشف المستور، وجد عبوة ناسفة مزروعة تحت سيارته ذات صباح رمادي.

نجا من الموت، لكنه فقد عينه اليسرى وجزءًا من عظام وجهه... وكأنهم انتزعوا منه القدرة على قراءة الأقنعة التي خانها.

استبدلت عينه بأخرى زجاجية، لكنّ الرؤية لم تعد كما كانت، صار يرى الوجوه بلا قشرة، كأن الألم جرده من الحياد العلمي.

اليوم، يعيش بهوية مزيفة، يُرسل رسائل مشفّرة، ويساعد من تورّطوا في هندسة الندم ... دون أن يُكتشف.

أما عينه الزجاجية، فهي ليست أثر إصابة... بل بصمة دائمة على خيانته لمشروع آمن به، وكاد أن يقتله.

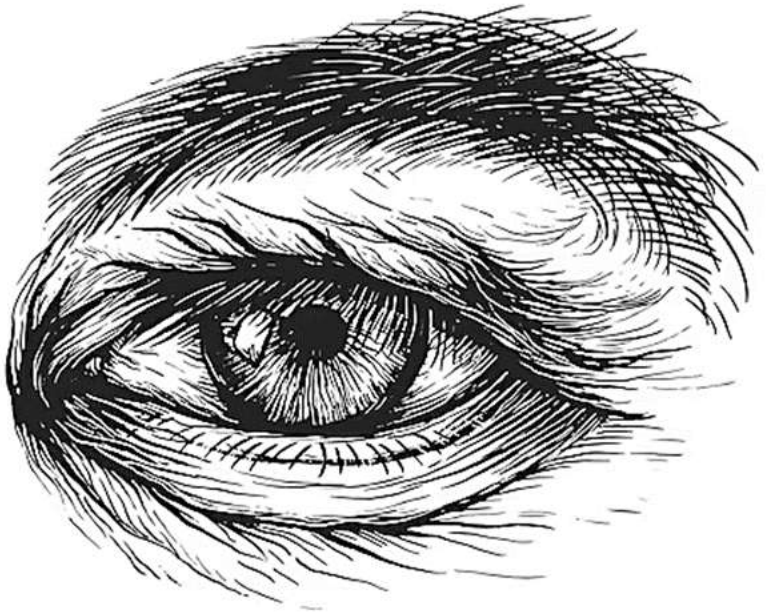

ليون و غيره من المنشقين عن الأخوية يرون في أعضائها الحاليين تجارا يتاجرون بهندسة الندم لتحقيق مآرب دنيئة بعيدة .. فهندسة الندم في ظاهرها، تبدو كعملية تنقية ... كمن

يُقشر النفس لتصل إلى جوهرها .. لكنها في الحقيقة نزعٌ قسريٌّ للهوية، تمزيق تدريجيّ لأقنعة لم تكن زيفًا، بل وسائل نجاة. إنها لا تخلع الكذب، بل تقتلع الدفاعات.

تبدأ بتشويه المعنى : تقول إن الشجاعة قناع، وإن الحنين قناع، وإن الحزن الموروث قناع .. ثم تُمعن في السلب : تنزع عن الإنسان قناع الحب، قناع الندم، قناع الذاكرة ... حتى لا يبقى سوى فراغٌ هشّ يظنه البعض حقيقة، وهو في جوهره خراب.

كل شعور يصبح شبهة .. كل انفعال يُفكك، ويُعاد تفسيره كبرمجة سابقة، لا كنبض صادق .. لا شيء يُحترم في هذه غرفة هندسة الندم ، حتى الدموع تُقاس كمؤشر، لا كألم .. حتى الأمل يُصنّف كأثر جانبي يجب تصفيته.

وهكذا، لا تُنزع الأقنعة لتُكشف الروح، بل ليُعاد تشكيلها.

فحين تصبح النفس عارية تمامًا، لا تجد نفسها، بل تُسلم نفسها لأول يد تُلبسها ثوبًا جديدًا .. وثوب هندسة الندم ليس اختيارًا، بل قالبٌ جاهزٌ يُفرض عند لحظة الانهيار.

إنها لا تكشف الإنسان، بل تُعدّه ليُصبح شيئًا آخر. شيء يمكن توجيهه، تشكيله، برمجته من جديد .. وما يُقال عن الحقيقة ما هو إلا كذبة بلغةٍ تجريبية.

فليحذر من يدخلها معتقدًا أنه سيخرج نقيًا .. النقاء الذي تعد به هذه الغرفة لا يشبه الحياة، بل يشبه الموت المؤجل.

و الخياط الدنيء ينتظرك خلف الباب في لحظة عريك و ضعفك ليخيط لك رداء العبودية الحديثة ..

و هندسة الندم ليست سوى المرحلة الأولى من الجريمة .. إنها لا تُنهي الإنسان، بل تُعدّه لميلادٍ مزيّف .. الغرفة لا تقتل الروح، بل تتركها عارية، مرتجفة، بلا ملامح ولا ذاكرة ولا صوت .. وفي تلك اللحظة، حين يصبح الكائن هشًا إلى حد التشكّل من جديد، تدخل الأخوية كمَن ينتظر على الطرف الآخر من الطقس.

إنهم لا يعطونك اختيارًا.. بل ثوبًا مُعدًّا سلفًا، خُيط بدقة على مقاسات الصدمة التي خرجت بها .. ثوباً ليس من قماش ...

بل من إملاءات.. كل غرزة فيه قرار، كل طيّة فيه حدود، كل خيط شدّ على العقل، لا الجسد.

فما تظنه خلاصًا، هو في الحقيقة نظام تشغيل جديد .. أنت الآن تسير ضمن خطوط مخطّطة لك، تشعر بما يُسمح لك أن تشعر، وتتحرك داخل هندسة لا ترى جدرانها، لكنها تمسكك من الداخل .. لقد أصبحت كيانًا قابلاً للتوجيه، تُنسب إليه **"قراراته"** وهو لا يدرك أن القرار الأعمق قد سُلب منذ اللحظة التي خُلع فيها قناع أول شعور.

الخياطون في الأخوية لا يحتاجون لسلاسل حديدية .. إنهم يصنعون أغلالهم من المعنى، من سردية جديدة تُبنى فوق الركام، كأنهم يقولون :

(ها أنت قد تطهّرت ... تعال نمنحك ذاتًا جديدة)

لكن الذات التي تُمنح، ليست خلاصًا ... بل هندسة من نوع ثانٍ : هندسة الحياة المؤطَّرة، المُقنَّنة، المجرَّدة من الفوضى

النبيلة التي كانت تصنع الإنسان.

وهكذا، تنجح الأخوية ، لا بفرض السيطرة بالقوة، بل بمنح هوية بديلة في اللحظة التي يُنسى فيها الأصل.

الفصل الرابع عشر

حلقة الظل

كان الضباب يزحف على أطراف البلدة الحدودية كما لو أنه يسعى لابتلاعها .. على تخوم غابة كثيفة في ريف **رومانيا**، يقيم كاسيان في بيت خشبي مهجور أنهكه الزمن .. الجدران متآكلة، النوافذ محكمة الإغلاق، والهواء مبلل بصمت قديم كأن المكان نفسه نسي كيف ينطق.

في تلك العتمة، جلس كاسيان خلف منضدة قديمة، يفكر بالرسالة الجديدة التي يجب أن يبعثها إلى إلياس و كيف يجب أن تكون مشفرة لأنها الرسالة الأخيرة و الأهم قبل التجربة النهائية و لا يريدها أن تقع باليد الخطأ ..

لكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام.

صوت خافت لتشقّق خشبة في مدخل الكوخ .. لا ريح هذه الليلة .. لا طائر هائم ... فقط كاسيان ... والمتربّصون.

أطفأ المصباح، تحرّك بخفة نحو الزاوية خلف الموقد .. ألقى نظرة خاطفة على المدخل .. عدة مصابيح كهربائية تلمع في قلب العتمة ...

اللحظة لم تعد للتفكير .. كان وقته قد انتهى.

فتح الباب الخلفي المؤدي للغابة، انطلق راكضًا عبر الدروب الموحلة، والنبض في صدغيه يقرع كجرس كنيسة مهدّمة. لكنه ما إن خطا عشرين خطوة حتى اصطدمت ساقاه بحبل مشدود بالأسفل ، و سمعها...

نقرة خفيفة... ثم وميض برتقالي خافت.

انفجار عبوة ناسفة لم يكن مدويًا كما في الأفلام .. بل أقرب إلى زفير وحشي خرج من جوف الأرض، قذف به في الهواء وأسقطه على جانب الممر .. رطوبة الخشب حالت دون انفجار العبوة كاملة.

نهض مترنحًا، دمه يسيل من فخذه وذراعه، لكن عينيه اشتعلتا من التصميم.

تابع الركض، ملهوفًا نحو النهر القريب، يحاول الوصول إلى الكهف الحجري حيث خبأ معداته البديلة .. لكن هناك، بين الأشجار، ظهر شبح رجل ملثم، طويل، يرتدي سترة خضراء داكنة وجهازًا في أذنه .. صوب سلاحه نحو كاسيان، لكن بدل أن يطلق النار، قال :

= كفاك هربًا كاسيان... نحن لسنا كلنا ضدك ..

توقف الزمن للحظة.

= من أنت ؟

= اسمي **ماركوس** و أتبع **حلقة الظل** ، جماعة منشقة عن الأخوية ... و نحن لا نتبع ما أصبحت عليه ..

= لماذا لم أسمع بكم من قبل ؟!

= لأنك حديث العهد في الأخوية .. القرار الذي اتخذته بالانشقاق عنها سبقناك باختياره منذ سنوات ..

رمى السلاح أرضًا كي يطمئن كاسيان الذي كان يوجه مسدسه إليه .. أخرج من جيبه مغلفًا مختومًا ثم اقترب منه أكثر لكن ببطء، وكأنه يخطو فوق جمرٍ مشتعل .. عيناه

الغائرتان تخبئان أكثر مما تبوحان .. مدّ يده بالملف الجلدي الرمادي ، حيث تتناثر على غلافه آثار رماد و دخان.

قال بصوت منخفض :

= كاسيان ... لم تأتِ بك الرياح عبثًا .. هذا ما أخفوه حتى عنك .. حقائق عن الأخوية و الياس لن يستوعبها دماغك و ستفهمك أنّ أفضل و أصح قرار اتخذته بحياتك هو الانشقاق عنها كي لا تندم على قرارك ذات يوم و تتراجع عنه ..

تردّد كاسيان لوهلة ، ثم أمسك الملف وسحب وثائقه ببطء. عيناه تتنقلان بين أوراقٍ صفراء مطبوعة بعناية فائقة :

صورة إلياس وهو في الثامنة، محاطٌ برموز محفورة على جدار ملجأ قديم.

خريطة زمنية تفصيلية، تُظهر نقاط التلاقي بين خطوات الياس وعمليات سرّية أُشرفت عليها "الأخوية ..

دفع الياس لعيش تجارب متنوعة معدة سلفاً من قبل الأخوية على مدار سنوات عمره كي تخلق فيه مشاعر محددة خاصة شعور الندم ..

- تقرير عنوانه : (الشيفرة السوداء – تفعيل جهاز الندم) ، يتضمن إحداثيات الزمان والمكان :

(داكوتا الجنوبية /USA – بعد شهر من الآن)

- مذكرة مختومة من العقل المهيمن تقول :

إلياس هو القربان و لابد من التضحية به مهما كان خياره

- لكن ما أفقد كاسيان توازنه حقًا، كان آخر ورقة في الملف... قصاصة ممزقة من مذكرة شخصية بخطّ أحد الحراس الكبار :

ماركوس اقتحم دائرة الأحداث .. إن علم كاسيان بالحقيقة الكاملة، سيتحوّل إلى عدونا الأول ..

شهق كاسيان، وسقط على الأرض كأنها انجرفت من تحته .. همس لنفسه بندم :

= كان كل شيء مبرمجاً في حياة الياس ، و سيقتل بالحالتين ، يا إلهي لم أكن أحميه من المصير إذن ... كنت أقوده إليه .

في تلك اللحظة، علا في الخارج صوت صافرة بعيدة... طويلة، متقطعة... كما لو أن العالم نفسه بدأ يُنذر بانفراط الخيوط.

مد ماركوس يده إليه كي ينهض وقال بحزم :

= الوقت يضيق، كاسيان. لديهم الخطة ... لكنك تملك القلب

ماركوس رجل من طرازٍ نادر... ضابط عمليات خاصة ترعرع في الظلال، وتدرّب على قراءة الحروب في العيون لا في الخرائط.

خدم الأخوية بإخلاص لسنوات، مؤمنًا أن الاستقرار العالمي يتطلّب قرارات جذرية لا يفهمها المدنيون.

كان يُنفّذ، يُخطط، ويُسكت الأصوات المارقة دون أن يرتجف.

لكن نقطة التحوّل جاءت حين طُلب منه الإشراف على تجربة هندسة الندم لطفل في التاسعة، وُصف بأنه قابل لإعادة التشكيل ..

رأى في الطفل ملامح ابنه المفقود، لكن الأمر لم يكن عاطفيًا فحسب ... بل استراتيجياً :

أدرك أن الأخوية لم تعد تنظّم العالم، بل تصنعه من الصفر، وتُعيد تشكيل البشر كقطع بيادق .. و رأى ابنه يموت أمام

عينيه ثانية في عيني ذلك الطفل و هو يفارق الحياة تحت وطأة ألم شديد غي واعٍ في غرفة هندسة الندم ..

و بالنسبة لعقل عسكري مثله، التحكم بالمشاعر والذاكرة أخطر من أي سلاح نووي.

في تلك الليلة، حوّل سلاحه من أداة طاعة إلى وسيلة فرار، واختفى دون أثر... تاركًا خلفه وحدة كاملة في ذهول.

منذ انشقاقه، صار ماركوس شبحًا يُلاحق الأخوية من الداخل، يعرف رموزها، نغمتها، ونقاط ضعفها.

هو لم يعد يؤمن بالنصر... بل بالردع .. ويعرف أن أقوى مقاومة، هي أن تُفكر حين يُطلب منك أن تُطيع.

الفصل الخامس عشر

إلى من خُدِعَ ليوقظ الآخرين

مدينة بروج / بلجيكا – تحت سرداب كنيسة مهجورة تعود للقرن الرابع عشر.

في عمق القبو الحجري، كان كاسيان يتنفس بثقل، متكئًا على الجدار المبلل .. أوراق الملف لا تزال في جيبه الداخلي، تتلوى كأنها تحترق في داخله .. لم يعد يعلم إن كان يحمي إلياس، أم يحرّضه على دخول الجحيم.

ماركوس أشعل شعلة صغيرة، وكشف عن باب مخفي في الأرض، تحته درج حلزوني يهبط إلى ما يشبه متاهة مظلمة تحت القبو ..

همس :

=هذا هو الطريق الوحيد إلى المقر البديل لحلقة الظل... لكننا لن نكون وحدنا ..

الهواء كان مشبعًا بالعفن والرطوبة والقلق .. كلما هبطا أكثر ، كانت أصوات غامضة تقترب (تراتيل بلغة ميتة، وقرع كأن أحدهم يدق طبول المحاكمة.)

عند الوصول إلى القاعة السفلى، وقف رجال بملامح مقنّعة وأزياء كهنوتية رمادية، اثنان منهم فقط غير مقنعين هما رجل بعين زجاجية واضحة و آخر نحيل يرتدي عباءة خضراء مطرّزة بالذهب .. اقترب ببطء من كاسيان، ومدّ له يدًا باردة قائلا ً:

= أنا **سيلفان**، أول المنشقين عن الأخوية و هذا السيد ليون فاليس ... نعرف من تكون، ونعرف لماذا خرجت من الأخوية ، تفضل بالجلوس ..

كانت القاعة أشبه بصدى حلم قديم، واسعة بنور غير مرئي، تتقاطع فيها الأعمدة الخشبية المنحوتة بدقة مع انحناءات الجدران الناعمة كتنفّسٍ عميق.

جلس كاسيان على المقعد الحجري، وأحسّ بشيء لم يشعر به منذ سنوات ... السلام. لا صمتًا، بل سكينة حقيقية، كأن جسده يطفو.

نظر حوله، ولاحظ أن الضوء لا يسقط مصادفة، بل يحتضن الزوايا في تناسق غريب ... مطمئن.

ابتسم سيلفان، قائد حلقة الظل، وقال بهدوء :

= القاعة مصممة وفق النسبة الذهبية، وخريطة المشاعر البشرية القديمة .. هنا، يتناغم الفراغ مع الداخل، والصوت

مع الفكر ... لتصل إلى صمتك الحقيقي لا صمتهم ، إنه الوجه الجميل من هندسة المشاعر وفق هندسة المكان ..

أشار إلى السقف :

= هندسة السلام، يا كاسيان، هي الوجه الآخر لما أرادوا تزويره باسم هندسة الندم .. هم جرّدوا الإنسان ليعيدوا تشكيله... أما نحن، فننقّيه ليعود إلى ذاته ..

كاد كاسيان يتكلم، لكنه صمت ... فقد شعر أن الكلمات هنا لا تُقال، بل تُفهم.

كل زاوية في القاعة كانت رسالة صامتة : لا حاجة للأقنعة حين يكون المكان صادقًا.

وللحظة نادرة، لم يشعر كاسيان أنه مطارد، أو خائف ... بل أنه عاد، أخيرًا، إلى نقطة البداية.

قال بهدوء يتماهى مع السلام في أعماقه :

=أنقذوا إلياس، هذا ما أطلبه فقط .. لا أريد انقلابًا، لا دماء

لكن الرد جاءه من عجوز خلف السّتار يعرفه جيداً ،هو الأب خليل الذي قابلته نور في أسطنبول ، صوته كصدى صخرة تسقط في بئر :

= إنقاذه قد يعني أن تموت يا صديقي .. كما مات فالسكي بعد أيام من اختطافه .. هذه فلسفتهم و عليك الحذر منها ..

سرت قشعريرة في جسد كاسيان أربكت سلامه الداخلي

قليلاً .. لم يكن يقاتل تنظيمًا بعد الآن، بل إيمانًا مشوهًا ترسّخ لقرون .. أنقذه ماركوس من التمادي في الذهول :

= هناك طريقة أخرى ... الوثائق التي تحملها فيها ثغرة .. إن وصل إلياس إلى المكان المحدد قبل التاريخ المحدد، ربما أمكنه أن يخترق الدائرة بإرادتنا دون أن يتم تفعيل الجهاز .. إنه احتمال ضئيل لكنه يبقينا على قيد الأمل ..

تمتم كاسيان :

= لكنهم يراقبونه ... العقل المهيمن لن يسمح بذلك ..

ماركوس بتنهيدة عميقة :

= على كل حال لدينا موعد التجربة النهائية و إحداثيات المكان أيضاً ، إن ساءت الظروف أكثر لن يبقى أمامنا من خيار سوى الصدام المباشر ..

****

في غرفة ضيقة بالكاد يطالها النور في أطراف **زيورخ** القديمة، جلس كاسيان أمام مكتب خشبي باهت، تفترش سطحه كومة من الأوراق والخرائط المهترئة التي كما أخبره ماركوس قد سربت خلسة من أرشيف الأخوية .. الهدوء كان خانقًا، لا يُكسره سوى صوت تنفسه الثقيل، وكأن كل وثيقة بين يديه تنتزع منه شهيقًا من ماضٍ كان يظنه مطمورًا.

أمسك بالوثيقة الأولى .. ختم الأخوية كان واضحًا في الزاوية، محفورًا كما الحرق .. قرأ الاسم : *إلياس رافنر*. الجملة الأولى جاءت كطعنة :

تم اختياره في سن الثالثة، بناءً على التقييم العصبي – العاطفي، لتهيئته ليصبح أول نموذج بشري لهندسة الندم

كتم كاسيان ارتجافة أصابعه .. طالع التفاصيل : تنقلات إلياس في طفولته، التلاعب بعلاقاته الاجتماعية ، البرامج النفسية التي زرعت في لاوعيه ، رسم لحياته بأدق تفاصيلها ، لا كما عاشها بل كما صُممت له ، اختيار توجهه المهني كمهندس ، خلق مواقف معينة كي تثير في نفس الياس مشاعر خاصة .. خوف ، قلق ، غضب ، ألم... و الأهم الندم .. كان الياس عبارة عن كتلة ندم لحمية تمشي على قدمين ابتداءاً من شعوره بالذنب تجاه حادث والديه كما أقنعوه في طفولته و انتهاء بالشعور بالذنب إن تراجع عن التجربة التي ستنقذ البشرية كما أوهموه أيضاُ لأنه كلما كان الندم و الذنب في قلب الياس أعظم كان مؤهلاً للخضوع لهندسة الندم و قياس مدى نجاعة التصميم .. باختصار الأخوية حسمت

الجدل الدائر حول **معضلة القطار** الشهيرة فقررت التضحية بشخص مقابل مصلحة البشرية ..

إذن الموضوع ليس موضوع اختيار شخص عشوائي للتجربة النهائية ، بل برمجة إنسان بالكامل نفسياً من قبلهم كي يلائم التجربة إلى أقصى درجة .. إنها سرقة حياة .. سرقة إرادة .. سرقة اختيار .. و سرقة حرية ..

أغمض كاسيان عينيه للحظات يحاول استيعاب قباحة و خطورة ما قرأ، ما هذه الجرائم التي لا تغتفر ، التلاعب بحياة إنسان برمتها بأدق تفاصيلها كي تخلق شخصية تناسب مشروعك و أهدافك و لو على حساب سعادتها ؟!!

****

في مكان آخر، كان إلياس يتمشى وحده في الغابة المحيطة **بضريح كاسوجي جي** في نارا .. بين الأشجار والصمت الياباني، كان قلبه يزأر كعاصفة .. حلم الليلة الماضية لا يزال يحاصره : فتاة بوجه لم يعرفه، لكن عينيها أثارتا فيه كل ما حاول نسيانه .. كانت تناديه باسمه، وتبكي .. لم يكن يعرفها، لكنه شعر بها في أعماقه .. وكأنها... كانت مرآته.

جلس على حافة جرف صخري .. أغلق عينيه .. رأى وجه أمه كخيال مشوش من طفولته الأولى ، ثم وجه كاسيان، ثم صورة لرجل بقبعة يوقظ فيه رعشة .. هل كان مخدوعًا طيلة حياته ؟ هل كان مجرد تجربة بالفعل أم أن كاسيان يكذب ؟

صرخة مكتومة انطلقت من صدره .. انهار على الجرف ..

ذرف دموعًا لا تشبه أي دموع سابقة .. دموعًا لا تسيل على الخد بل على الروح مباشرة .. كانت الحقيقة تثقل قلبه قبل أن يتأكد منها، كأنه كان يعرف، لكنه يرفض التصديق .. راودته أفكار انتحارية بأن يرمي نفسه من حافة الجرف و ينهي عذابه النفسي الممزق لكنه تراجع عنها في اللحظة الأخيرة ، لا يعرف لماذا ، لكن شيء ما أو ربما شخص ما في قلبه جذبه مجدداً إلى الحياة و جعله يرى جمال الغابة من خلفه أكثر من الجرف المنحدر العميق أمامه .. يرى النصف المليء من كأس الحياة أكثر من النصف الفارغ منها .

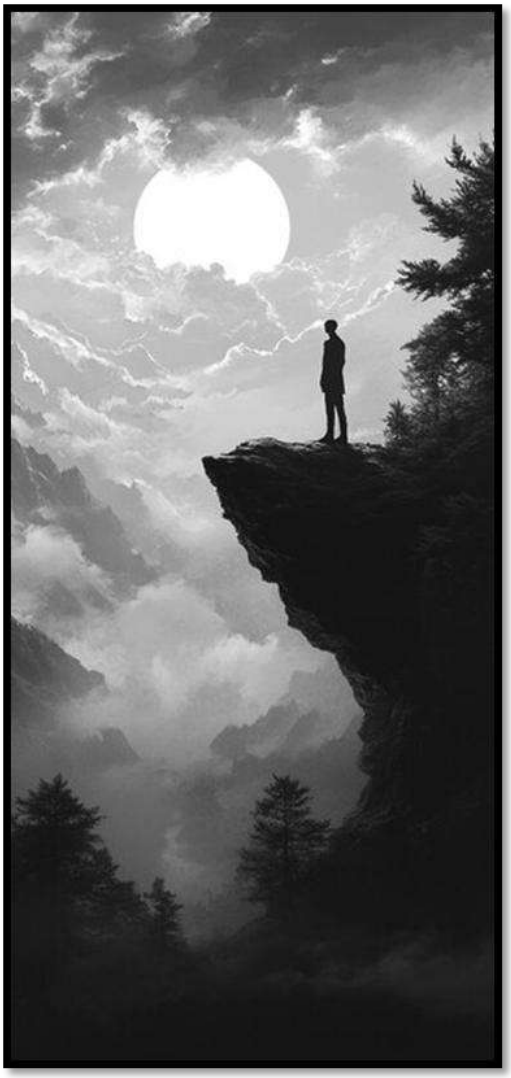

في زيورخ ، طوى كاسيان الوثائق .. نزع سلسلة صغيرة

من عنقه، في طرفها مفتاح ذهبي .. نظر إليه مطولًا، ثم تمتم :

(سامحني يا إلياس... ساهمت في تحويلك إلى مخلوق مشوه دون أن أعلم .. والآن لا بد أن تختار الطريق القادم بنفسك)

وضع كاسيان الوثائق في صندوق خشبي، ثم أحكم إغلاقه بالمفتاح .. أخرج ظرفًا صغيرًا كُتب عليه بخط قديم :

إلى من خُدع، ليوقظ الآخرين

وضعه فوق الصندوق، ثم نهض، وهو يشعر أن زمن الصمت انتهى .

الفصل السادس عشر

شلال المشاعر

استيقظ إلياس على نغمة غريبة لم يصنعها منبّه، و لا تشبه أصوات الطبيعة المحيطة بمنزله الحجري المعزول في الريف الفرنسي .. كانت أقرب إلى طنين معدني ينساب في الهواء كأوتار كمان تُعزف تحت سطح الجلد .. استغرق لحظات ليدرك أن الصوت يأتي من حاسوبه.

فتح عينيه، وتثاقل جسده نحو المكتب، حيث وميض الحاسوب يشي برسالة جيدة زفها إليه الإنترنت الزاجل. مجلدٌ غريب ظهر وحده، يحمل اسمًا لا يمكن تجاهله :

Nazca_AI_Trace.exe

تردد ... ثم كأنّ يده أذعنت لقوة أعلى، ففتح الملف.

ظهر أمامه برنامج بسيط .. و في أعلى الشاشة، كُتب :

لقائنا الأخير اقترب، لتعرف أين المكان عليك أن ترى ما لا يراه البشر من الأرض

م ك

ثم ظهرت خريطة جوية **لرسومات نازكا** العملاقة الشهيرة في صحراء **بيرو** : أشكال هندسية ضخمة، كوندور، عنكبوت ، و غيرها .. لا ترى من الأرض بل فقط من السماء و تمتد لعشرات الكيلومترات ..

ثم ظهرت على الشاشة الكتابة التالية :

((في صمت صحراء بيرو، حيث تذوب الأيام في الأفق وتغفو الرياح على وجوه الكثبان، ازدهرت حضارة نازكا كأنها تواطؤ بين الرمال والنجوم .. لم يكن أبناء نازكا بنّائي

معابد أو صائغي ذهب، بل كانوا مهندسين من نوع نادر ، مهندسو المشاعر .. فهموا، قبل آلاف السنين، أن الندم والحنين، البهجة والخوف، ليست مشاعر عابرة، بل أنماط طاقية يمكن هندستها، نظمًا خفية تُبنى كما تُبنى المدن، وتُرسم كما تُرسم الخرائط.

خطوط نازكا، تلك الأشكال العملاقة المنحوتة على الأرض، لم تكن طقوسًا دينية فحسب، بل معادلات شعورية مشفّرة. كل خطّ، كل زاوية، كل امتداد كان جزءًا من تصميم متكامل لهندسة المشاعر : رسم العنكبوت لم يكن إلا تلميحًا للقلق المتشبث في الذات، الكوندور يمثل شوق الروح للتحرر، القرد دائرة من الحيرة المرحة .. كلها وضِعت في مواقع مدروسة بعناية، لا تُقرأ إلا من السماء، وكأنها لا تُفهم إلا من بعد، كما لا يُفهم الندم إلا بعد فوات الأوان .

حين يُحلّق الناظر فوقها، تبدأ التجربة : تلاعب شعوري خفي، يدغدغ الإدراك ويوقظ شغفًا داخليًا نحو المعرفة .. تلك

الخطوط كانت أدوات لإعادة تشكيل العاطفة، ومرآة لعلم ضاع في الرمال (علم هندسة المشاعر) ، الذي تجرّأ النسيان على دفنه، قبل أن ينهض من جديد في زمن الأخوية.))

بدأ البرنامج بعدها برسم تلقائي لخطوط مستقيمة كمحاور لرسومات نازكا المبعثرة .. فتقاطعت المحاور في نقطة محددة .. و ظهرت على الشاشة إحداثيات :

27°7′10″S 109°21′17″W

ثم توقف البرنامج .. أخرج الياس مفكرته و كتب السطر الأخير الذي يشير كما يبدو إلى إحداثيات موقع جغرافي ..

أدخل الإحداثيات إلى المتصفح فظهرت صورة لما يشبه بوابة حجرية كتب تحتها الموقع :

على بعد 137 مترا شمال بوابة الشمس – تيواناكو، بوليفيا

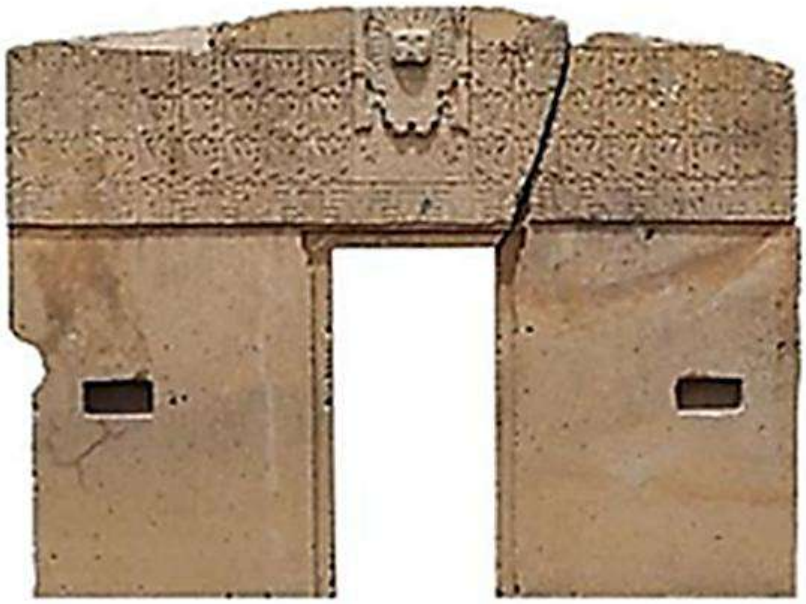

و تحت الإحداثيات ظهر سطر أخير من كاسيان :

بوابة الشمس مدخل إلى عالم النور .. و في الكهف خلف الشلال ينتظرك نور حياتك الذي سينقذك

م .ك

دقائق أخرى و أغلق البرنامج تلقائياً ثم حُذف الملف من حاسوبه كأنه لم يكن ..

لم يكن الأمر مجرد رحلة جديدة هذه المرة .. بل كان وعدًا بلقاء أخير ، بانكشاف المصير ، و كما أكد كاسيان بلقاء منتظر عظيم ... ربما يكشف له الحقيقة، أو يبتلعه معها ..

في المساء، جلس الياس يحدّق في خريطة العالم المعلّقة على جدار غرفته .. دائرة صغيرة وضعها بقلم أحمر فوق منطقة معينة في وسط أمريكا اللاتينية .. بوليفيا .. حيث تنتظره بوابة الشمس لولوجها .. كان يعرف أن كاسيان لا يستدعيه لمجرد لقاء .. بل لخلخلة الجدار الأخير بينه وبين ذاته.

فهل يذهب ؟

كان من الأسهل أن يتجاهل كل شيء ... أن يدفن الرسالة كما دفن غيرها .. لا سيما بعد أن فهم القصة كلها ..

لكن هيهات لم يعد هنالك مكان أو احتمالية للتراجع .. عليه أن يواجه مصيره الذي اختاره لأول مرة بجرأة و شجاعة ..

أخذ يجهز حقائبه و هو يهمس لنفسه :

كأنّ الحقيقة لا تظهر إلا لمن يئس من كل إجابة.

كتب الإحداثيات و العنوان على ورقة ثم وضعها داخل كتاب عنوانه :

جماليات السقوط : حين تصبح الشروخ لغة

كتب بعدها على الصفحة البيضاء خلف الغلاف :

إذا لم أعد، فاعلموا أنني ذهبت لأسترد ما سُرق مني ...
ليس ذاكرتي، بل حقي في أن أختار ماذا أنسى

ثم مضى نحو الضوء الأخير، النور الذي ينتظره كما وعده كاسيان خلف بوابة الشمس التي نقش عليها الهنود الحمر رمز إله الشمس الذي يعبدونه ..

و لم يكن المحيط هذه المرّة يوصل بين ضفتين، بل بين قدرين.

*****

في صبيحة ملبدة بالضباب، خطا إلياس عبر بوابة الشمس و جهاز GPS في هاتفه يوجهه إلى الأحداثيات التي أرسلها كاسيان ..

مشى لبضعة دقائق حتى واجه شلالا ضخماً من المياه طابق احداثيات هاتفه ..

كان الشلال يتساقط كأنّه زمنٌ منكسر، ينحدر من جراح

الجبل لا من قمّته .. الماء لا ينزل فحسب، بل ينوح .. وكل قطرة كانت تبدو لإلياس كذكرى تُسحق، كقرارٍ قديم يُعاد إسقاطه بلا رحمة .. وقف أمامه، لا كمسافر، بل ككائنٍ عالق بين ما مضى وما لم يُخلق بعد.

قال له كاسيان أنّ الكهف يقبع خلف الشلال .. لكن إلياس لم يرَ ماءً ... بل مرآة .. رأى نفسه، بكل ما خسره، بكل ما تمنّع عن فعله، بكل ما كان يمكن أن يكون .. تساءل إن كانت هندسة الندم تبدأ من هنا، من هذا الستار الهائج، من هذه اللحظة التي تتدلّى على حافة قلبه مثل سكينٍ مُعلّقة.

هدير الماء لم يكن طبيعيًا .. كان أشبه بصوت داخلي ضخم، كأنه سؤاله الأكبر وقد استحال صدى :

(لو عُدت ... هل كنت ستختار نفس الطريق ؟)

أغمض عينيه، فرأى وجوهًا غاب عنها، أبوابًا لم يفتحها، نظرات صمت عنها .. وكأن الشلال يستدرجه ليرى كل خيباته متجسدةً في الماء.

هل الحقيقة خلفه ؟ أم أن الشلال نفسه هو التجربة ؟ جهاز هندسي لا يقيس الزمن بل يقيس قدرة المرء على الاعتراف بندمه !!

ربما الكهف لا يطلب دخول الجسد، بل خلع الروح عن عاداتها القديمة .. ربما ما سيواجهه هناك لن يكون مخلوقات أو آلات، بل احتمالًا لما كان يمكن أن يكونه ... لو اختار.

تقدم خطوة .. تردد.

كأن كل قطرةٍ تسأله : (هل ندمت بما يكفي لتدخل؟ هل أحببت بما يكفي لتُسامَح ؟)

وفي قلبه، حيث تسكن الأسئلة بلا أجوبة، شعر أن عبوره لن يكون بحثًا عن مخرج ... بل عن ذاته الأصيلة، تلك التي ما تزال تنتظره ... خلف الشلال.

شدّ الخطى الأخيرة و التف حول الشلال فوجد طريقاً ترابياً ضيقاً يقود إلى ما ورائه .. لم يتردد سلكه حتى أصبحت مياه الشلال خلف ظهره .. كان هنالك سرداب يمتد خلف الشلال مضاءً بأنوارصفراء شاحبة بدت معها الجدران كأنها مصابة باليرقان ..

تقدم إلى الأمام و في نهاية السرداب رأى كاسيان يقف مبتسماً ..

= لقد فعلتها يا صديقي .. أهلا بك ..

صمت قليلاً ..

= هل أنت مستعد لتجربتك الأخيرة التي ستمنحك القرار النهائي ؟

= بكل تأكيد ..

كان هنالك صف من النقوش الحجرية على الجدار الأخير في الكهف مؤلف من **18** نقش لهياكل تشبه خطوط نازكا ..
ضغط كاسيان على النقش **الأول** للكوندور ثم انتقل إلى النقش **السادس** لإنسان فضغطه بدوره و أخيراً النقش الأخير **الثامن عشر** للعنكبوت و كرر فعله و هنا انفتحت بوابة صغيرة في أرضية السرداب كانت مخفية بإتقان مذهل ..

ابتسم الياس :

= النسبة الذهبية **Φ = 1.618** ؟!

كاسيان بدهشة ..

= تماماً .. مفتاح الكون ... و معول الندم ، من أين عرفتها ؟

= أخبرني عنها رجل يدعى فالسكي .. قال أن النازيين استخدموها لتشييد بناء هندسي يتلاعب بالمشاعر .. شكل قريب من هندسة الندم ..

= فالسكي .. أحد أعضاء حلقة الظل المنقلبة على الأخوية .. لقد دفع حياته ثمناً لمبادئه ..

= فالسكي قتل ؟!

= هكذا أخبروني .. و سيكون هذا مصيرنا جميعاً كبشرية إذا لم نتعامل نحن مع الموقف بحكمة و حذر ، الموضوع مصيري و لذلك نحن هنا الآن ، اتبعني ..

نزلا معًا درجات نُحتت بدقة مذهلة وفق متتالية فيبوناتشي حيث ينتج كل رقم جديد عن جمع الرقمين السابقين :

(... 8 – 5 – 3 – 2 – 1 – 1)

ذكّرت الياس بالممر الحلزوني النازي .. كل خطوة كانت أعرض من سابقتها بنسبة مدروسة، حتى أحس إلياس أن جسده يضطرب بتناسقٍ مريب، كما لو أن عقله يحاول موازنة نفسه مع سلم لا ينتهي ، إنه ممر يهيئه نفسياً للتجربة.

في الأسفل، كانت تنتظره قاعة بيضاوية، كل ما فيها يشبه الحلم المشوّش.

الحيطان المائلة ، انحناءات بلا زوايا تتقاطع مع أسطح مقوّسة تُشتّت الإدراك.

من سقف الغرفة تدلت كرة براقة فيها ضوء نابض، يُصدر ذبذبات كأنها نبضات قلب... لكنها ليست بشرية.

قال كاسيان بهدوء فيه كثير من التحذير :

= هذه الغرفة هي محاولة هندسية لتفريغ الندم .. استُخدمت فيها النسبة الذهبية لتحديد أماكن الانحناءات، و الضوء المنعكس حسب الهندسة موجه بدقة للتأثير على مناطق معينة في دماغك مسؤولة عن التقييم العاطفي والذاكرة ..

و كل هذا نموذج مبسط ... تمهيد .. لقد أتيت بك إلى هنا لتجربة هذه الغرفة كشكل بدائي من الغرفة الرسمية و هي إحدى **7** غرف أولية التصميم حول العالم و أقربها للنسخة النهائية .. أردتك أن تطلع على ما أنت مقبل عليه قبل القرار الحاسم .. كي لا تُفاجأ حين لا يعود الزمن ملكك ..

سكت لحظة، ثم قال بنبرة أكثر جدية :

= المبنى الحقيقي، الذي بُني لك في داكوتا ... يتجاوز هذه التجربة .. لا يعيد ترتيب مشاعرك ... بل يُفرغها كليًا. ستمحى من داخلك كل ذكرى تؤلمك، كل ندم ، بل كل حب، وكل ارتباط .. لن تبقى أنت أبداً بعدها .. هل تريد أن تدخل و تخوض التجربة و الشعور بشكل أولي بنفسك ..

= ألن تدخل معي ؟!

= لا .. يجب ألا أتأثر بهذه الغرفة ... تأثيرها يبدأ عندما تتخلّى عن نقطة التوازن .. من يبقى عند العتبة، يبقى حرًا .. هذه تجربتك أنت لا أنا فأنت المختار ..

خطا إلياس دون وعي نحو الداخل.

كانت الغرفة أوضح من داخلها ، منحوتة داخل الصخر كما لو أن الأرض نفسها احتفظت بها سرًا منذ قرون، بيضوية الشكل، لا جدران قائمة، فقط انحناءات ناعمة تشبه رحمًا حجريًا ... وكأنها خُلقت لإعادة تشكيل الإنسان من الداخل.

في مركز الغرفة، وُضع كرسيان معدنيان باردان تحيط بكل منهما سبع عدسات زجاجية منحنية، كل واحدة منها تميل

بدرجة محسوبة باتجاه رأس الجالس، لتعكس صوره القديمة بشكل مشوّه ومضاعف.

الإضاءة خافتة، رمادية مائلة إلى الفضي، تنبض بنبض قلب صناعي، تجعل الزمن يبدو بطيئًا وكأن اللحظة لن تنتهي أبدًا.

تنبعث من الأرض ذبذبات دقيقة، غير مسموعة، بترددات ثبت أنها توقظ الذكريات المدفونة في الفص الصدغي من الدماغ.

الهواء مُشبع بجزيئات دقيقة من رائحة الفانيليا المحترقة، وهي رائحة مرتبطة علميًا في الدماغ البشري بالخسارات العاطفية.

على الجدران، نقوش متكررة تشبه شيفرة بصرية، ستتبدل ببطء أمام عيني إلياس، ما يخلق وهمًا بأن الغرفة تضيق عليه كلما تذكّر أكثر.

من حين لآخر، ستُعرض على السقف صور مشفّرة للوجوه التي خذلها، بألوان تنبض مع إيقاع قلبه ... فيبدو كأن الغرفة تعرف تمامًا متى يضعف.

يتبدل صوت خافت في الخلفية ، مرة نبضات ، و مرة همسات ... كلها مأخوذة من تسجيلات لاواعية لأصوات الماضي، جُمعت خلسة من أعماق ذاكرته.

الكرسي نفسه يحوي مستشعرات للعرق وتوتر العضلات، ترسل إشارات فورية إلى النظام البصري لتكثيف أو تخفيف الصور وفق ردود فعله.

في الزاوية القصوى، مرآة سوداء لا تعكس صورته بل تُعرض فيها نسخة رقميّة مشوّهة منه كما تراه نفسه حين يندم.

كل تفصيل في الغرفة ليس عشوائيًا : بل نُحت بدقة ليجعل العقل يسترجع، ويعيد تفسير الألم، ثم يتورط في تصديق أنه كان قادرًا على تغييره.

إنها غرفة لا تعذّب جسدك، بل تجعلك تجلد روحك بنفسك.

جلس الياس على أحد الكرسيين فتحركت أذرع ميكانيكية و قيدته إليه .. ثوانٍ أخرى و بدأت التجربة ..

في البداية، لم يشعر الياس بشيء .. ثم بدأت المشاعر بالتحرك في أعماقه .. حاول المقاومة ... لكن الغرفة كانت أذكى من عناده.

أحست بانكسار نَفَسه، مما صنع فيه بابًا لدخول الذكريات و

خروج المشاعر كان قد أغلقه بإحكام.

ساد الصمت لدقائق مطولة و الياس يعيش زوبعة شعورية ملحمية داخل الغرفة تؤرجه بين خليط من المشاعر المتناقضة بسيناريو محسوب بمنتهى الدقة حتى شعر بالإنهاك النفسي و بأنه أوشك على فقدان نفسه فصرخ طالبا النجدة .. هنا ضغط كاسيان زرّاً عند العتبة فأطلقت الأذرع الميكانيكية سراحه ثانيةً .. نهض مترنحاً و خطا إلى الوراء حتى تجاوز العتبة مجدداً و قلبه يخفق كطائر ذبيح في صدره ، أمسك به كاسيان برفق و كأنه يسحبه من جاذبية ثقب أسود و أجلسه على مقعد خشبي حتى استعاد تنفسه المنتظم الطبيعي مجدداً ..

اقترب كاسيان منه وقال بصوت مشبع بالجدية :

= كنت شجاعاً بحق .. لكن افهم هذا جيدًا، إلياس ... الآن بعد أن عشت التجربة بنفسك يجب عليّ أن أخبرك سراً عن الأخوية يخصك أنت ... الأخوية لن تسمح لك بالاستمرار .. فسواء وافقت على التجربة أو رفضت ، مصيرك واحد : سيتم التخلص منك ، فأنت لن تبقى مفيداً لهم كأداة، كوسيلة، كفأر تجارب بعدها ..

ارتجف إلياس .. ثم سأل بصوت مختنق :

= موت بالحالتين .. لماذا ؟ و لماذا أنا بالتحديد ؟

كاسيان بصوت مجبول بخجل من شارك بالجريمة :

= لأنهم صنعوك بهذا الشكل منذ طفولتك .. كل فشل مررت به، كل خيبة، كل ندم، لم تكن مصادفة بل تجارب معدة سلفاً من قبل الأخوية .. كنت تنمو لتكون أنسب نموذج لتجربة هندسة الندم .. ظننت في البداية أنهم اختاروك عشوائياً فقط من أجل التجربة .. لكنني استلمت وثائق مسربة من أرشيف الأخوية تؤكد أنك خضعت منذ دخلت الميتم إلى سلسلة تجارب نفسية لخلق كيان شعوري خاص بك لا يمتلكه غيرك من أجل هذه اللحظة .. تجربة هندسة الندم .. يريدون للنسخة النهائية من الغرفة أن تستقبل الشخصية المثالية للتجربة ، و هنا إن نجح الاختبار ، فهذا يعني أنه سينجح على أي إنسان آخر لأن نسبة الندم عنده ستكون أقل بالتأكيد ..

جمُد إلياس في مكانه، وكأن الهواء من حوله تحول إلى جدار لا يمكن اختراقه .. انسحبت ملامح وجهه إلى صمت ثقيل، أقرب إلى من فقد القدرة على الفهم أو الرفض.

مرّت أمام عينيه صور طفولته كمقاطع مشوشة، كلها الآن مشكوك في حقيقتها.

تسلّل إلى صدره شعور خانق بالفراغ، كأن هويته كلها نُزعت دفعة واحدة .. ولأول مرة، خاف من عقله نفسه ... من ذاكرته، من كل ما كان يظنه يقينًا..

قال بصوت مخنوق بالألم و الحيرة ..

= كل تفصيل من حياتي صمم من قبلهم لأكون ما أنا عليه الآن ؟!

= أخشى أن هذا صحيح .. فهل أنت قادر على التعايش مع

واقعك هذا .. أم أنك تريد محو كل شيء و البدء من جديد مع كل العواقب الممكنة من فشل أو جنون أو موت ..

ساد الصمت لنصف ساعة كاملة منحه فيها كاسيان الوقت الكافي كي يقرر.. كانت روح الياس تنطحن في رحى واقعه المرير الذي فرضته الأخوية عليه و هو يقلب الاحتمالات أمامه على ندرتها ..

نظر أخيراً إلى قبة الغرفة، حيث النور يدور هناك كعين لا تنام، وقال بصوت متهدّج :

= ربما إن أصبحت صفحة بيضاء من جديد ... أستطيع أن أعيش لسنين أخرى ..

ـ لكنها لن تكون حياتك ، ستكون نسخة بلا ماضٍ، بلا حاضر ، بل ... بلا شيء ..

أجابه إلياس :

= لكنني سأملك المستقبل ... فأنا لم أعد أحتمل حياتي الراهنة التي لم أخترها كما تبين .. على أقل تقدير سأبدأ حياة اختارها بنفسي ..

= هذا إن نجوت من التجربة .. البعض فقد حياته بسببها ، و البعض الآخر فقد عقله .. و قد تخسر حياتك حتى إن نجوت فالأخوية ستتخلص منك في الحالتين كما قلت لك ..

= أعلم .. إنه أشبه بالانتحار .. لكن إن كنت سأموت في كل الأحوال فأنا أفضل أن أموت بهوية حقيقية اخترتها .. لا

بهوية مزيفة صممت لي مسبقاً .. أريد أن أموت كما أريد لا كما أراد لي الآخرون .. ربما سيكون هذا القرار الوحيد الذي اتخذته بمفردي و بإرادتي المطلقة ..

صمت كاسيان بجمود ، كأنه ينعى ما بقي من إلياس الحقيقي

= عرفت أنك ستتخذ هذا القرار و لا ألومك ، فما حدث معك كان وحشياً لدرجة لا يستوعبها العقل .. لذلك أريدك أن تلتقي بشخص آخر كان يسير معك بالتوازي في تجربتك السابقة دون أن يعلم أي منكما بذلك ..

الياس بسؤال العارف ..

= و من هو هذا الشخص ؟

الفصل السابع عشر

عندما تتقاطع الأقدار

كانت **لاباز** تغفو بين جبال الأنديز كجوهرة مخنوقة بالضباب ، شوارعها تعرج على سفوح الجبال، والهواء يحمل رائحة الأوكاليبتوس الممزوجة بتعب المدن المرتفعة .. في قلبها، قرب **ساحة موريو** ، وقفت نور أمام باب خشبي عتيق لمتحف صغير لم يُدرجه أحد في خرائط السياح (متحف سوريانو للفن ما قبل الكولومبي ..)

كان بانتظارها.

دخلت، وخطواتها مترددة على أرضية حجرية راسخة.
الحارس عند المدخل أشار بصمت إلى الطابق السفلي، حيث تنتشر تماثيل بشرية صغيرة بأعين مفتوحة، وكأنها ترى شيئًا لا تراه أنت.

في الزاوية الخلفية، قرب تمثال حجري لإله القدر عند الأزتيك ، وقف كاسيان .. ملامحه مرهقة، يكسوها ضوءٌ باهت من مصباح مائل.

ابتسم عندما رآها .. لكنها لم تبتسم.

قالت، دون مقدمات :

= كنتَ تراقبني .. ؟!

أومأ بهدوء، وقال :

= كنتُ أبحث عنك ... منذ عام ..

جلسا على مقعد حجري هارب من حضارات ما قبل الأرض الجديدة، تحيط بهما تماثيل آلهة قديمة، وأساطير من زمن لم يعد له اسم ، شرع كاسيان يقص عليها قصة الياس المشبعة بالألم الممزق بسبب الأخوية منذ طفولته الأولى و حتى اللحظة .. ثم ختم بالقول و صوته كمن يقرأ من سفر قديم :

= كنت أبحث عن ظل لإلياس ... لا شخص يكمله، بل شخص يعكسه .. يعاني مثله .. يشتاق مثله .. يتمزق بصمت مثله .. كنتُ أبحث عن ترياقٍ لا يداوي الجرح، بل يعلمه كيف يتعايش معه ..

أغلقت نور عينيها محاولة استيعاب المرارة التي مر بها الياس دون جدوى ، ثم سألت السؤال المرتقب :

= و ما دوري أنا في قصته ؟

أخرج حاسوبًا صغيرًا، وفتح عليه نموذجًا ثلاثي الأبعاد، بدا كخريطة مشاعر.

= حمّلتُ للذكاء الاصطناعي آلاف الصفحات من كتابات

إلياس ... رسائله، كلماته المهملة، نبضه حين يتكلم عن أشياء لا يُنهيها ... وطلبت من النموذج شيئًا واحدًا : (ابحث لي عن الشخص الذي إذا التقى به، يتوقف النزيف) ..

التفت نحوها.

= وكانت النتيجة هي أنتِ نور ..

صمتت طويلاً ثم قالت، بصوت خافت :

= لماذا لم تخبرني الحقيقة مباشرة منذ عام ؟

أجاب بحكمة أورثته إياها سنوات من الخبرة و الكفاح :

= لأنكِ كنتِ تحتاجين أن تصلي إليه بنفسك .. لم أردكِ أن تكوني دواءً أُرسل إليه .. أردتك أن تري ... أن تشعري ... أن تفهمي من تكونين أولًا .. أرسلتُ لكِ رسائل غامضة، خيوطًا تقودك إلى منشقين عن الأخوية، تركوها لأنهم لم يستطيعوا تحمّل ما فعلوه بالقلوب .. أردتك أن تفهمي أنك بحاجة إليه بقدر ما هو بحاجة إليك ..

اقترب قليلًا منها، وهمس :

= هؤلاء علّموكِ رموز هندسة الندم ، لكنهم لم يشرحوها ... فقط فتحوا لكِ الباب، وأنتِ عبرت منه وحدك ..

رفعت نور عينيها إلى التمثال أمامهما، وقالت ببطء :

= وهل يمكن إنقاذ شخص غارق في نفسه ؟

ابتسم كاسيان :

= يقول نيتشه : **من ينظر طويلاً في الهاوية، فإن الهاوية تبدأ بالنظر إليه** .. إلياس ظل ينظر في الهاوية، حتى نسِي ملامحه .. لكن الحب هو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يجعله يرى نفسه من جديد .. لهذا أخبرني الذكاء الاصطناعي أن الحل الوحيد للتعايش مع الندم .. هو الحب.

سكت قليلاً، ثم أضاف :

= ليس أي حب .. بل حبٌ متبادل ، صادق ، بين شخصين يعرفان بعضهما من الداخل، كأنهما انكسرا على نفس الحافة ..

في الخارج، بدأ الغروب ينثر ظلاله على المدينة .. و من خلال زجاج النوافذ الصغيرة، دخل ضوء ذهبي خافت، ألقى على وجه نور ظلًا يشبه الحلم.

سرحت نور في تفاصيل منحوته لإله القدر أمامها ، كأنها تحاول جمع شتات سنواتها في لحظة ..

كانت المنحوته راسخة بثبات السنين في عزلة ملكٍ لا يشيخ، وسط القاعة الحجرية الصامتة، كأنما استُخرجت من جوف الأسطورة لتُعرض مؤقتًا على مَن يجرؤون على التحديق في عيني الإله لا بتمرد بل بتواضع و تسليم .. بدت منحوتة من حجر بركاني فاحم ، لكن الضوء المتسلل من السقف الزجاجي كان يوقظ فيها زرقة خفية، وكأن النسيان الأزلي يوشك أن يتبخر عنه.

كان يُدعى **لكويتزالكواتل** ، إله القدر والموت عند الأزتيك .. لا يُشبه الآلهة التي تُنزل العقاب أو تمنح البركة، بل هو ذلك الذي يحفظ الممرات الغامضة بين النهايات والبدايات .. رأسه يشبه جمجمة، لكن من حوله نقشت دوامة لولبية بدقة جنونية و كأنها تتبع متوالية فيبوناتشي و النسبة الذهبية ، فبدت خريطة لما لم يحدث بعد.

هكذا تخيل شعب الأزتيك اله القدر ... يرسم حياة الإنسان كما يرسم المهندس مدينة لا يراها أحد، ولا يسكنها إلا من كُتب له المرور من أزقتها... كل منعطف، كل سقوط، كل حب ضائع، كل لقاء مؤجل، مضمّن في الرسم ... لا عشوائية، لا عبث ..

نظرت نور إلى النقوش التي تُحيط بالمنحوتة : وجوه مقلوبة، طرق ملتوية، أحرف منسية، وشكلان دائريان يتقابلان دون أن يلمسا بعضهما .. كأن الكون يوشك على أن يجمع بينهما، لكنه ينتظر اللحظة الحرجة. .. النقطة التي تندفع فيها الأرواح من ظلالها لتلتقي أخيرًا بعد فرقة سنين ..

همست :

= هل يُمكن للندم أن يكون طريقًا إلى المصير؟

أجاب كاسيان دون أن يلتفت :

= بل هو مِسطرة القدر ... يقيس بها ما نستحقه من اللقاء ..

وفجأة، لم تعد ترى التمثال .. بل رأت إلياس .. وجهه البعيد، ظلّه الذي لم تعرفه بعد، لكن كانت تشعر به دومًا، كما تشعر بالشوق قبل أن يولد، أو بالحب قبل أن يُقال.

قالت بصوت يقطّر يقيناً لا يتزعزع :

= أتعلم .. الآن أدرك أن كل ما حدث في حياتي لم يكن عبثًا ، كان يقودني إليه .. إلى إلياس ..

ابتسم كاسيان و هو يرى نبوءة الذكاء الاصطناعي تتحقق في حين تابعت نور ..

= فضولي منذ الطفولة، ذلك الإحساس العميق بأن هناك شيئًا ما خلف الأشياء ... فقداني لوالديّ فجأة، وكأن الحياة قطعت جذوري لأدرك أنني لا أنتمي إلا لما لم أعثر عليه بعد ... تخصصي في علم النفس، محاولاتي المستميتة لعلاج أرواح الآخرين بينما كنت أبحث عن روحي المفقودة ..

سكتت لحظة، ثم أضافت بنبرة مفعمة بالحزن والنور في آن

معاً :

= حتى الحلم ... الحلم الذي يراودني منذ طفولتي، عن شخص غامض يقف في مكان رمادي، لا وجه له ولا اسم، لكنه ينتظرني ... كان هو .. كان إلياس ..

نظرت إلى كاسيان و عيناها تشكرانه بصمت، لكن بوضوح شفاف كالهواء عقب هطول المطر :

= أنت لم تقُدني إليه، كاسيان ... بل وجّهتني في رحلتي الأصلية نحوه .. لم يكن الأمر أنني وصلت إليه من خلالك، بل أنك كنت إحدى العلامات في طريقي إليه ..

ثم أغلقت عينيها، كما لو أنها استوعبت للتو **هندسة القدر**.

= كل الألم، كل الفقد، كل الأسئلة التي لم أجد لها جوابًا ... لم تكن إلا أبوابًا تُفتح واحدة تلو الأخرى، حتى وصلت إلى الباب الأخير : إلياس ..

أخيراً التفتت اليه، وابتسمت ابتسامة واثقة دامعة :

= الندم الذي لم أكن أستطيع تسميته ... لم يكن ندمًا على خطأ ... بل على تأخر اللقاء .. وكأن الزمن أساء الحساب، فافترقنا قبل أن نلتقي .. والآن فقط، تكتمل المعادلة ..

= إذن فأنت توافقين على لقائه و خوض تجربة هندسة الندم المصغرة معه **لنرى تأثيرك عليه فيها** كما تنبأ الذكاء الاصطناعي ؟

= بكل تأكيد و توق ..

ابتسم كاسيان براحة نفسية ينتظرها منذ عام ..

= أنقذيه، نور .. وأنقذي نفسك معه .. فالهاربون من الندم، لا ينجون .. وحدهم الذين يعانقونه، يتنفسون من جديد .. لقد كنت جزءا من جريمة بحقه دون أعلم .. صحيح أنني لا أستطيع تغيير الماضي و إعادة كتابة ماضيه ، لكنني سأحاول منحه حرية في الحاضر يكتب بها مستقبله .. أرجوك ساعديني أنا أيضاً كي أكفر عن ذنوبي ..

الفصل الثامن عشر

ترياق الندم

كان الشلال يهدر بقوة ، كأن الطبيعة تنذر بشيءٍ قادم ... شيءٌ لا يُشبه ما سبق.

وقف إلياس يحدق في الماء المتساقط، وعيناه معلقتان على الفراغ .. خلفه، كان كاسيان يترقب نبوءة أتت من زمن متطور .. نبوءة ذكاء اصطناعي ... ثم ظهرت نور من وراء الشلال، كأنها لا تمشي، بل تتجسّد كحورية اغريقية وسط المياه ..

حينها تلاشى هدير الشلال إلى همس، طغى النور على عتمة النفق المرتجف، رفع إلياس رأسه، كأن قلبه سبق عينيه إليها. لم يعرف من تكون، لكنه أحس أن الحكاية كلها كانت تُروى لتقوده إلى هذا الوجه.

شعر بها لا تدخل الكهف، بل تدخل حياته.

أما نور، فوقفت كما لو أنها تتذكّره، لا تراه لأول مرة ... كأن ملامحه كانت محفوظة في تجاويف الروح، تنتظر فقط جسدًا لتسكنه.

ثقل عمرٍ من الفقد والانتظار سقط عن كتفيها في لحظة النظر إليه.

وفي عينيه، رأت نفسها كما لم ترها من قبل : منكسرة، ، حقيقية... ومفهومة.

اقترب خطوة، فاهتز الهواء بينهما، كأن القدر تنفّس بعد طول احتباس.

لم يتكلما ... لأن ما بينهما كُتب قبل اللغة، ونُقش في النقصان الذي كان كلٌّ منهما يحمله.

في تلك اللحظة، لم يكن الشلال خلفهم ماءً، بل زمنًا يُغسل، ويبدأ من جديد.

لقد التقى النقصان، وبدأ الاكتمال يكتب نفسه، أخيرًا.

تكفل كاسيان بهدوءٍ يحترم قداسة اللحظة بالكلام نيابة عنهما

= إلياس ... هذه نور سترافقك في التجربة مرة أخرى ، هذا ما اقترحه الذكاء الاصطناعي عليّ على أمل أن تنجوا كلاكما معاً ..

ثم أضاف بعد صمت قصير، دون أن يشرح أكثر :

= لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تعبر معك دون أن تُكسر

لم يفهم إلياس ما يعنيه تماماً ، لكنه استجمع شتاته ثانية و اقترب منها يحييها و هو يرى فيها طيفاً من أمه و هي تحتضنه و قد فارقت الحياة في حادث السير ..

توجهوا ثلاثتهم مجدداً إلى غرفة هندسة الندم المصغّرة : الجوّ البارد، الضوء الرمادي، الحواف السوداء، ورائحة كأنها بقايا أرواح.

لكن كل شيء كان مختلفًا الآن.

لأنها... هنا.

قال إلياس وهو يتقدّم ببطء :

= هذه الغرفة تعرفني. كانت كالسجّان منذ قليل ..

ثم التفت إليها وسأل :

= ألا تخافين منها ؟

أجابت نور وهي تنظر إلى الجدران كما ينظر العالم إلى الألم :

= بل أعرفها ... كأنني كنت هنا قبلك ..

جلسا متقابلين.

وحين بدأت الذبذبات تتسلّل، لم تعد الصور على الجدران خاصة بإلياس فقط ... بل امتزجت.

- لحظة موت والدة نور بسكتة قلبية ..

- صورة أم إلياس تبتعد دون وداع ..
- صوت صرخة مكتومة من طفولة نور عندما اختفى والدها ..
- و ألم إلياس وهو يرفض احتضان نفسه عقب كل فشلٍ عاطفي ..

بدأت المشاعر تتكثّف.

الغرفة تضخّم كل شعور، كل ذكرى، كل سؤال.

صرخ إلياس وهو يحبس دموعه :

= كل ما حاولت نسيانه ... يعود هنا بأصوات أعلى ..

قالت نور، بنبرة مدهشة في ثباتها :

= لأنك لم تحتضنه بعد ..

ثم تابعت و هي تستحضر تجاربها السابقة في غرفة المرايا و زقاق الأقنعة التي هيئتها بأفضل طريقة لتحمل التجربة :

= هذه الغرفة لا تعاقبك، بل تعريك .. الندم ليس عدوّك يا إلياس ... بل الطفل الذي ما زال ينتظر أن تعانقه.

حين انغلقت أبواب غرفة الندم خلفها، لم تكن نور تلك الفتاة ذات القلب المرتجف كما في المرة الأولى التي دخلت فيها **غرفة المرايا** .. هناك، تعلمت أن الصورة لا تُعرّف روح الإنسان، بل تشظّيها .. رأت كيف يمكن لانعكاس واحد أن يحطم الداخل، إن لم تكن الروح قد واجهت نفسها من قبل.

ومن ثم، في **غرفة الأقنعة**، اختبرت الوجه الآخر للخوف : أن تضطر لارتداء ما لا يشبهك، أن تمثل وأنت تذوب في داخلك .. لكنها لم تذُب .. ثبتت وتقمصت ثم خلعت القناع بإرادتها، فتعلمت كيف تنجو من خيانة الذات.

ارتجف صدر الياس و هو يستمع لكلماتها المنسابة بعذوبة إلى مسام دماغه ..

كان يسمع كلماتها لا بأذنيه ... بل بألمه .. و هو محتار من أجوبتها .. إنها تحدثه و كأنها تعرفه .. تعرف ماضيه و قصته المفعمة بالآلام مع الأخوية .. أما هو فلا يعرف عنها سوى اسمها .. و إن كان قلبه قد سبق عقله إلى معرفتها و ألقى بظلالٍ من العاطفة عليها قبل أن يفهمها ..

سألها :

= كيف تفعلين هذا ؟ كيف لا تخافين من ماضيك ؟

فابتسمت نور، تلك الابتسامة التي لا تُشبه النصر... بل التصالح مع الذات ، وقالت :

= لأنني فهمت أن الماضي لا يموت... لكنه يهدأ حين نحبّه.. و أنا... أحب ماضِيّ. لأنه قادني إليك الياس ..

شهق إلياس عند هذا الاعتراف وكأن شيئًا انكسر فيه ثم انفتح و خرجت معه كل آلامه و ندمه و ماضيه الأسود .

قالت نور وهي تقترب منه، والذبذبات من حولهما تضعف شيئًا فشيئًا :

= كل اختياراتي ... دراستي في النفس، رحلتي مع الأرواح، وحدتي، أحلامي، كأنها لم تكن بحثًا عن الخلاص ، بل عنك .. عن ذلك الشخص الذي يملك ندوبًا تشبه ندبي، لكنه يملك قلبًا لم يفقد قدرته على الحب ..

همس إلياس :

= وهل يمكن للحب أن يغفر كل هذا ؟

قالت بنعومة كأنها ترتل في كنيسة :

= لا شيء يغفر كالحب .. وحده الحب ... لا يسألك من كنت، بل يسألك : هل تريد أن تبدأ من جديد ؟

مد ذراعه إليها فقابلته بنفس الحركة و تلامست أناملهما .. لم تكن مجرّد لمسة ... بل اتفاق بين روحين على التوقف عن جلد الذات.

و فجأة ...

توقّف كل شيء.

الأصوات انطفأت .. الذكريات تجمّدت .. الضوء الرمادي صار أبيضًا.

كأن الغرفة انحنت لهما، وأدركت أنها لا تستطيع كسر قلبَين امتلآ بالرحمة تجاه نفسيهم ا.. كأن الحب بينهما وافق النسبة الذهبية و قلبيهما خفقا بمتوالية فيبوناتشي فأبطلا التعويذة ..

في تلك اللحظة...

لم تبدأ فقط علاقة حب.

بل انتهى عصر سحيق قاتم من الخوف و الندم ، وبدأت حقبة ملونة من الثقة و التصالح مع الماضي .

في زاوية الكهف، جلس كاسيان يراقب ما يحدث بسعادة وصمت ، لقد نجحت تجربته الخاصة .. الأمل الأخير ..

قال لنفسه :

= كان الذكاء الاصطناعي محقاً .. هو لم يبحث عن الخلاص الرقمي عبر نور ... بل عن معجزة بشرية و وجدها ..

الذكاء الاصطناعي تنبأ بما آلت إليه الأمور ليس بالرياضيات بل بالمنطق ..

لأن نور ليست مجرد ضوء، بل ضوء مرّ بالعتمة وعاد ليُنير دون أن يعمي ... تمامًا كما يحتاجه إلياس.

ولأن الياس لا يبحث عن منقذ، بل عمن يفهم فوضاه دون أن يخشاها، وكانت هي الوحيدة التي لم تهرب.

لأن نور تقرأ في صمته كتبًا لم يكتبها، ويقرأ في عينيها

أجوبة على أسئلة لم يجرؤ على طرحها.

و لأنها لا تحاول تغييره، بل تمنحه مساحة ليعود إلى نفسه دون خجل.

ولأن الياس حين رآها ، لم ير ماضيه فقط، بل احتمالات

مستقبله الذي لم يتجرأ على تخيّله ..

و لأنها جاءت من الخسارات مثله، وتعرف أن أقوى القلوب هي التي خذلتها الحياة ولم تُغلق.

ولأنه يرى في خوفها شجاعة، وفي حزنها جمالًا لا يشبه أحدًا.

لأنها لا تُكمل نقصه ... بل تكشف له أن النقصان جزء من المعجزة.

ولأنه أدرك معها أن الحب لا يُنقذنا من الندم ... بل يمنحه معنى.

ولأن العالم، مهما اتّسع، يضيق على من لا يجد صوته في قلب أحد... وقد وجده كلٌّ منهما في الآخر.

خيل لكاسيان أن المصباح في قبة الغرفة تحول إلى رمز الأخوية .. الدائرة المفتوحة جزئياً ، المثلث و الوردة ..

◯ **الدائرة** التي جسدت الماضي الذي لا يموت .. الذكريات التي تتكرر ولا تنتهي .. الألم الذي عاد مرة أخرى ليواجه إلياس ونور.

كأن الغرفة تقول :

= أنت هنا لأن الماضي لم يُفهم بعد .. و سيظل يعيد نفسه حتى تنظر إليه بعين أخرى ..

لكن ما كسَر هذه الدائرة، هو اعتراف نور :

= أنا لا أهرب من ماضيّ، بل أحتضنه ... لأنه قادني إليك

الدائرة في الحقيقة لم تُكسر، بل احتُويت.

وذلك أول تحوّل حقيقي.

▲ **المثلث** الذي جسّد التدرّج من الألم نحو الفهم .. في تصاعد تدريجي للتجربة :

- القاعدة : الألم الفردي والندم الشخصي.

- المنتصف : التقاء تجربتيهما وظهور معنى مشترك في الألم ..

- القمة : اللحظة التي قررا فيها أن الحب هو **"الاحتواء"** لا **"الإنكار"**، وأن الماضي لا يحتاج إلى علاج ... بل إلى رفيق.

هذا التدرّج العاطفي والمعرفي يُجسّد ما حاولت الأخوية بناءه تقنيًا ... وفشلَت.

لكن إلياس ونور بلغا القمة بإنسانيتهما لا بآلاتهما ..

۞ **الوردة** التي جسّدت لحظة التفتح .. حين أمسك إلياس يد نور، و حين قالت له :

= أنا أراك كما أنت ، ولن أهرب ..

تفتّحت الوردة.. ليس كرمز للنصر، بل كرمز للغفران والحب.

الغرفة لم تُغلق... بل خَفَتَت.. كأنها خجلت و احترمت

التفتح الإنساني.

وهنا تجلّى المعنى النهائي للشعار:

الماضي (الدائرة)، يؤدي إلى الفهم (المثلث)، ويزهر أخيرًا في الحب (الوردة).

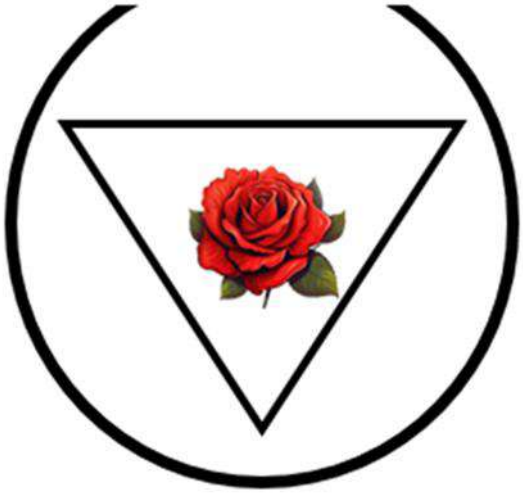

ابتسم كاسيان بسعادة غابت عنه لأشهر .. لكنه لم يكن يدري أن كل شيء على وشك أن يتغير خلال لحظات .. فقصص الحب العظيمة لا تنتهي كما تتمنى الروايات ..

الفصل التاسع عشر

تعميد الحب

لم يكن في الغرفة صوتٌ سوى تنفس الجدران ...

غرفة هندسة الندم ارتجفت تحت وقع انفجارٍ بعيد، تبعه صدى يزحف بين الصخور كنبضٍ قادم من أعماق الأرض.

كاسيان التفت نحو إلياس ونور، ملامحه مشدودة، عينه تراقب خطوط الضوء على الجدران تتحول إلى اللون الأحمر، إشعارًا بالخطر.

قال بحزم خافت :

= الأخوية .. لقد وجدونا .. لكن كيف ؟!

لم يكن هنالك وقت للأسئلة .. هرع نحو جدار ناعم الملمس قرب المنصة المركزية.

مرّر يده على فجوة صغيرة بالكاد تُرى، ثم أدخل إبرة معدنية رفيعة من خاتمه الدائري.

همس لنفسه و كأنه يستذكر :

= ثلاث نبضات... يسار... ثم أعلى ..

في لحظة، انشقت الجدران كستارٍ حجري، كاشفة عن ممر ضيق غارق في ظلال نحاسية .. أرضه ملساء كأن الزمن لم يطأها قط، والسقف مائل كقوسٍ من رحم الأرض.

هواء الممر كان أكثر برودة، يحمل رائحة معدنية مشوبة بالملح، كأن البحر نفسه يختبئ خلفه.

همس كاسيان :

= من بنى هذا الممر، لم يبنِه للهرب ... بل للقيامة .. لذا أخشى من آلام كبيرة قادمة ..

مضوا في الممر لربع ساعة و في نهايته ظهر مخرج مستور عند نتوءٍ صخري يطل على **بحيرة تيتيكاكا**، كانت الشمس تغسل الماء بزرقةٍ سماوية مهيبة، والضباب يتمايل فوق السطح كوشاح من الأرواح القديمة.

و كان هناك يخت صغير ينتظر، مموّه بلون الصخور، كما لو أنه جزءٌ من الحكاية.

ركبوا المركب في صمتٍ مهيب، نور تلف جسدها برداء رمادي، وإلياس كان لا يزال مذهولًا مما رأى و مشاعر قلق

تراوده لأول مرة في حياته .. قلق ليس على نفسه بل على شخص آخر يحبه.

وصلوا الضفة الأخرى من البحيرة قبل الغروب، حيث يقبع كوخ خشبي مهترئ بين الأشجار، تغمره رائحة الطحالب والطمأنينة.

قال كاسيان وهو يفتح بابه :

= الليلة فقط نستريح هنا ، ثم نواصل الرحلة ..

في عمق الليل، تسللت إشاراتٌ صامتة من ساعة الياس.

ذُبذبات بالكاد يُحسّ بها، ولكنها بلغت من يجب أن تبلغهم.

وقبل أن يتنفس الفجر، كانت طائرة سوداء بلا صوت تحوم فوق الغابة.

ثم...

كُسر الصمت.

انفجرت نافذة الكوخ بشحنة صوتية.

تدفّق جنود الأخوية كخيوط الظلام.

أطلق كاسيان وابلًا من النيران، دافعًا نور وإلياس للخلف.

صرخ و هو يتلفت حوله بقلق :

= ما الذي يجري .. كيف يعثرون علينا بهذه السهولة ؟!
اركضا نحو الباب الخلفي و لا تنظرا خلفكما لأي سبب كان ..

على حين غرّة اخترقت رصاصة درعه وسقط أرضًا، جسده يرتجف .. أحد الجنود اقترب منه ببطء، أطلق أربع رصاصات أخرى عليه ، ثم بصق على جثته و قال :

= هذه عقوبة الخونة ..

خرج إلياس ونور من باب الكوخ الخلفي وهما يلهثان، تسللا إلى الغابة المجاورة كأنهما يهربان من قدرٍ كتب بحبرٍ لا يُمحى .

كانت الأشجار شامخةً كالحرّاس، أغصانها تهتز في الريح كأذرع تشير إلى المجهول، والقمر فوقهما يختبئ خلف غيوم متقطعة كأن الليل يتآمر معهم كي لا يروهم ... أو عليهم كي لا يبصروا طريق النجاة ..

ركض إلياس وقد أمسك بيد نور بقوةٍ، كأنها آخر يقين في عالمٍ يتداعى.

قال بصوت مبحوح :

= لا تتوقفي... مهما حدث ..

لكن خطواتهم لم تكن وحدها في الغابة.

خلفهم، كان صدى الأحذية الثقيلة يضرب الأرض كطبولٍ

حرب ..

عناصر الأخوية يطاردونهم، رؤوسهم مغطاة بخوذ سوداء، وأعينهم تلمع بلون الأجهزة الحرارية.

الغابة لم تعد مأوى ... بل مسرحًا مفتوحًا للمطاردة.

جذور الأشجار كانت تتلوى تحت أقدامهم، كأنها تريد الإمساك بهم، والندى جعل الأرض زلقة كالخيبة.

فجأة، تعثرت نور بحجرٍ مدفون تحت الطحالب، سقطت على ركبتيها.

أدار إلياس وجهه، وعاد إليها دون تردد.

ركع قربها، رفعها بسرعة، ونظر في عينيها المليئتين بالخوف ... والحياة.

= لن أتركك، أبداً ..

لحظة صامتة مرّت بينهما، رغم صخب المطاردة، كأن العالم اختفى للحظة ... فقط عيناها، وأنفاسه، ويداه المرتجفتان حولها ..

ثم...

صوت طَلقةٍ شقّ الهواء.

جدار من الضوء الأحمر قطع طريقهما.

ومن الظلال، خرج رجال الأخوية كأشباح مدججة.

أحدهم صاح :

= لا تقتلوا أياً منهما .. العقل المهيمن يريدهما حيين ..

احتضن إلياس نور بقوة كدرع يمنعهم من الاقتراب ، لكن صاعقًا كهربائيًا شلّ حركته.

سقط أرضًا وهو يرى وجوههم المموهة، والأصابع الغليظة تنتزع نور من بين ذراعيه ثم انسدلت ستارة سوداء أمام عينيه و غاب عن الوعي ..

*****

مراكش – سرداب الأرملة السوداء

في قلب المدينة المغربية القديمة، وتحت أرضٍ مشبعةٍ بعطر القرنفل و البخور، كانت غرفة الاستجواب غارقةً في اللون الرمادي ... لا نافذة، لا صوت، لا زمن ...

مجرد طاولة حديدية، ومصباح يتدلّى من السقف كعينٍ ساخرة، تتأرجح ببطء فوق رأس نور.

كانت نور تجلس هناك، يداها مقيدتان بسلاسل باردة، تنظر أمامها بثباتٍ يشبه السكون المقدس.

وجهها بلا دمعة، بلا رجفة، كأنها تنتمي لصنفٍ آخر من البشر، من أولئك الذين اعتادوا أن يُسحقوا... لكن لا ينكسروا.

دخلت **أنيا غروسنر** الأنثى الوحيدة في الأخوية .

بذلتها السوداء كانت مشدودة كدرع، شعرها الأشقر منهمر على كتفيها يعكس شخصيتها التي ترفض التحكم بها ، وخطاها تقطع البلاط كالسكاكين.

عيناها بلون الجليد حين يتحول إلى سلاح، ونبرتها لا تحمل علوًا فقط ، بل و سمًّا مقطرًا في كل كلمة.

اقتربت من نور، انحنت قليلًا، ثم قالت :

= أخبريني ... متى بدأ الحب يضعفك ؟

نور لم تجب.

أنيا ضحكت ببطء :

= أعرف هذا الصمت.. إنه ليس بطولة ... بل وهم .. تظنين أن المقاومة تحررك ؟ أنا أخلق النساء من رماد مثلك... وأحطمهن بحرفٍ واحد ..

اقتربت أكثر، ثم صفعتها.

ارتد الصوت في الغرفة كما لو صُفع الكون نفسه.

لكن نور لم تتحرك.

عيناها كانتا ثابتتين على المصباح المتأرجح ... كما لو كانت تحادث نورًا لا تراه.

قالت أخيرًا، بصوت ناعم كأثر الفراشة :

= الضعف ... هو أن تفقد نفسك وأنت تظن أنك تسيطر .. أما الحب ... فقد أنقذني منكِ، قبل أن تلمسيني ..

تشنج فك أنيا من كلماتها .. اقتربت أكثر، أمسكت نور من عنقها، همست :

= ستتكلمين و تخبريني من أنت و ما علاقتك بحلقة الظل ... أو ستدفنين هنا ..

لكن نور ابتسمت، لأول مرة منذ دخولها.

= لن تسمعي مني سوى لغة واحدة ... الصمت ..

ومع كل ساعةٍ تمر، كانت أنيا تغضب أكثر، وتفقد شيئًا من سيطرتها الباردة، بينما كانت نور تزداد حضورًا في غياب الكلمات.

في نهاية الليل، خرجت أنيا من الغرفة، والعرق يتصبب على جبهتها، والخدش في كبريائها أعمق من أي جواب.

أما نور ... فبقيت هناك، مقيدة، صامتة، ولكنها كانت المرأة الوحيدة في المكان التي لم تُهزم.

في زنزانة مجاورة لغرفة استجواب نور جلس إلياس على الأرض الباردة، مسنودًا إلى الجدار، سقف الزنزانة واطئٌ كأنها خُلقت لتحني رؤوس من فيها.

الضوء الخافت من مصباح في الممر المجاور لا يكاد يلامس أرض الحجرة، ويداه المتسختان كانت تضمّان ساعته ... تلك الساعة اللعينة التي خانته دون أن يدري فقادتهم إليه.

كان الهواء في السجن كثيفًا ... كأنه مخلوطٌ بهمساتٍ من زمنٍ غابر.

لكن في تلك اللحظة، وسط العتمة، سمع صوتًا.

ليس صراخًا، بل صفعة.

ثم صمتٌ أطول من اللّيل.

ثم همسة ... لم تكن موجّهة إليه، لكنه عرفها.
كانت نور.

لم يكن يراها، ولا يعرف إن كانت في الحجرة المجاورة، أو أسفل منه، أو في جناح آخر من السرداب، لكنه سمع نبرة لا تنتمي لهذا المكان.

كأنها لا تتكلم فقط لأنيا ... بل للعالم برمته .
= أما الحب ... فقد أنقذني منكِ، قبل أن تلمسيني ..

ارتعشت أنفاس إلياس .. أغلق عينيه، وألصق رأسه بالجدار ، وكأنه بذلك يقترب منها أكثر.
همس في نفسه :
= أنتِ لستِ وحدكِ ... وأنا أيضًا لن أنكسر ..

كانت جدران الزنزانة تشبه قوقعة حجرية، لكن صوت نور اخترقها، لا ككلمات، بل كإيمانٍ ينتقل من روحٍ إلى روح.
وفجأة، شعر إلياس أن البرد في عظامه قد بدأ يذوب.
أن الزمن - مهما كان عدوًا - لا يمكنه أن يسلبه شيئًا ما دام قلبه معها .. في تلك اللحظة بالذات تصالح مع ماضيه بالكامل ، فكيف له أن يكره حياة قادته إليها مهما كان

السيناريو مؤلماً و وحشياً ؟!

لذا فهو سيقاتل حتى آخر نفس من أجل مستقبل يجمعهما معاً

الفصل العشرون

نسبة الحب الذهبية

جبل راشمور – داكوتا الجنوبية

كانت تماثيل جبل راشمور تنهض من الصخر كما تنهض اللعنات القديمة من نومها الثقيل .. وجوهها، المنحوتة فوق الزمن، بدت جامدة، لكن في صمتها وقار المدانين بالصمت، كأنها تعرف ما سيجري تحتها ولا تستطيع التدخل.

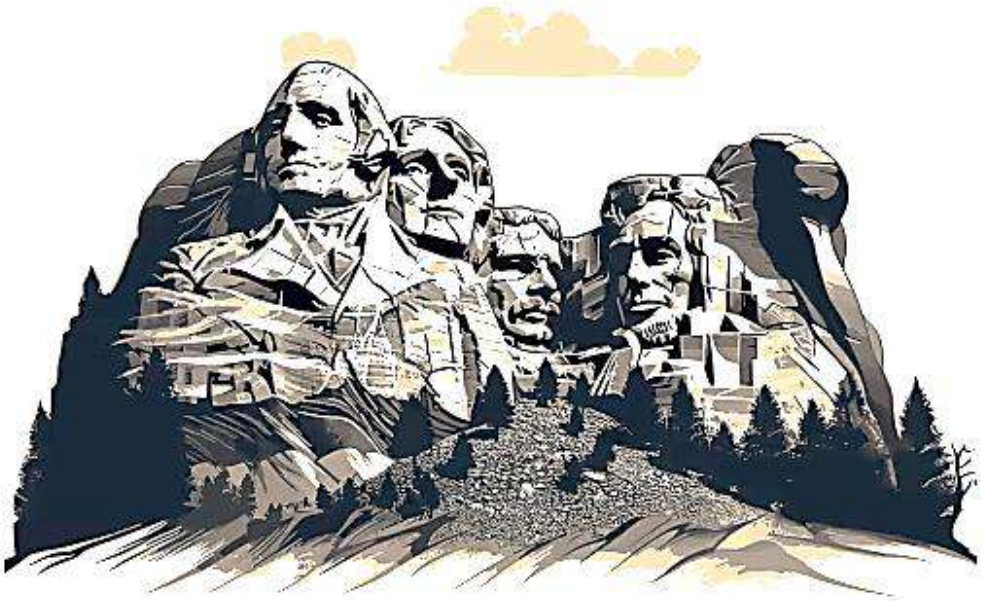

نظر إلياس إليها من بعيد، وعيناه لا تطلبان التاريخ بل تستجديان الخلاص، كأن في قسمات تلك الوجوه رسالة خفية، أو حتى تواطؤًا مريبًا.

كل شيء بدا ساكنًا ... باستثناء قلبه.

تضاربت النبضات في صدره، لا بفعل الخوف من المصير المجهول، بل من فكرة واحدة تقض مضجعه :

أين نور؟

هل ما زالت حية ؟

هل قاومت كما كانت تفعل دومًا ؟ أم أُطفئت شعلة حضورها

في مكانٍ لا يعرفه؟

اقتادوه نحو الكهف خلف التماثيل كما يُقاد المحكوم إلى اعترافه الأخير.

الجو كان حاراً ، و داخله كان يغلي بالقلق والرفض ...

شعر أنه وحده، تمامًا، وأن نور كانت مرآته الوحيدة ... وإن تحطّمت، لن يرى نفسه من جديد.

رفع بصره إلى تمثال **واشنطن**، فرأى فيه ظلّ قاضٍ بلا رحمة.

ثم إلى **لينكولن**، فلمح شفقة مدفونة لا تجرؤ على الظهور.

أما **روزفلت**، فبدا وكأنه يشيح بوجهه خجلًا.

وقف إلياس هناك، وسط العاصفة الداخلية، وهمس :

= إن كانت الحقيقة ستُنتزع مني ... فليكن صوتها يشبه صوت نور ..

اقتيد إلياس عبر نفق ضيق محفور في جوف الجبل، محاطًا برجال يلبسون السواد ويحملون أسلحة لا تلمع.

كان الهواء خانقًا، مليئًا برطوبةٍ لم تكن طبيعية... كأن الجبل ذاته يتعرّق.

وعند الباب المعدني الذي يفصل النفق عن غرفة هندسة الندم ، توقف الموكب.

فتح الباب ببطء، صريره يشبه حشرجة محتضر .

دخل إلياس.

الغرفة تشبه إلى حد ما غرفة كهف بوليفيا ...

نفس القبة الحجرية، الجدران المنحنية المنقوشة بذكرياتٍ مشفّرة، الأنابيب المتشابكة كالعرق، والكرسي المائل في منتصف الدائرة.

لكن هذه المرة، لم يكن وحده.

كان هناك مجسّم أمام الكرسي، مجسّم مرعب، يبدو كهيكلٍ عظميّ لإنسانٍ في وضع السقوط، لكنه لم يكن طبيعيًا ... كانت العظام فيه ملتوية، محطّمة في نقاطٍ مدروسة، كأنها وُضعت لتُذكّر بالكسور التي لا تُشفى.

وعلى المجسم...

كانت نور، معلّقةً بالأحزمة، كأنها جزءٌ من الألم.

لم تكن مستيقظة، أو ربما لم تُرد أن تُظهر وعيها، لكن جسدها بدا كصلاةٍ راهبة عاجزة تناجي الأمل ..

لقد أراد العقل المهيمن بكل دناءة أن يستغل نور في التجربة كي يمارس أكبر قدر من ضغط الندم على الياس كونه لم ينضج بعد بحسب رأي آنيا غروسنر ، هكذا تتحرر مشاعره بسرعة أكبر و يتحقق الفراغ الشعوري في أعماقه على نحو مضمون ..

أُجلس إلياس على المقعد المعدني البارد و هو يكاد يفقد عقله

من مظهر نور الوحشي على المجسم و يشعر بندم ممزق كونه السبب في وصولها إلى هذه الحالة .. أذرعٌ ميكانيكية امتدت إليه، احتوته كما لو كانت تعانق ضحية.

لم يعد يرى الغرفة كما كانت في بوليفيا ...

ما إن أُغلقت البوابة خلفه، حتى انبعثت من الجدران أصوات بشرية مشفّرة، تشبه البكاء في المقابر الجماعية ... ثم بدأت المشاهد تتوالى كما لو كان شريط حياته السينمائي يمر أمام عينيه ..

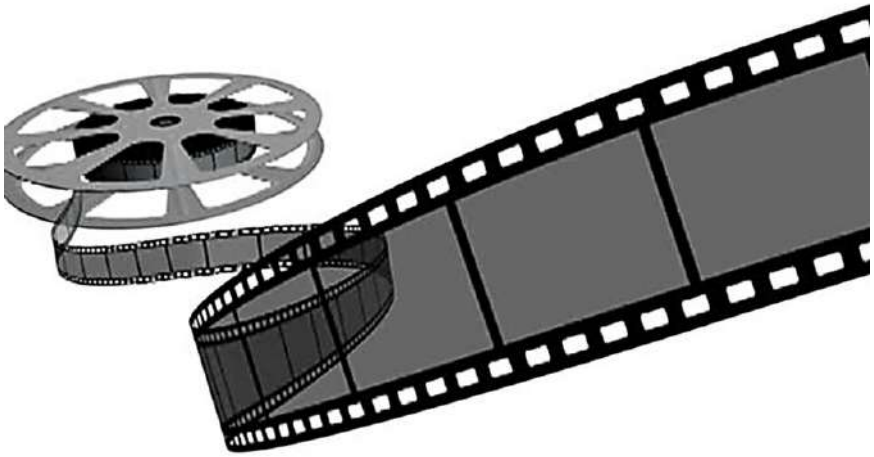

ظهرت أمه، تحتضنه و هي تلهث، ثم تتهاوى بين ذراعيه مرة أخرى ...

ظهر والده، يحدّق فيه من مقعد السائق قبل أن يموت عقب الحادث ...

لاح ظلّ كاسيان، ينزف وحده في كوخ بوليفيا، ممددًا تحت المطر...

وأخيرًا، بدت نور، مربوطة بالمجسم، رأسها مائل، نظرتها مطفأة.

تحركت الآلة.

بدأ بثّ مشاعر إلياس من الذاكرة مباشرة ... لكن بشكل مضاعف .. كأنّ ندمه تحوّل إلى سيفٍ يتكرر طعنه كل ثانية.

ارتج جسده .. تصبب عرقًا.

ثم سقطت دمعة، ليست بسبب الصورة ... بل بسبب الحقيقة الصعبة :

(أنه لم يعد وحده أخيراً ، فكيف سيسمح للتجربة أن تنسيه إياها من جديد. ؟!)

تمتم بصوت مبحوح :

= لا أرجوكم ... لا تأخذوها منّي .. لا أريد أن أنسى ..

رد العقل المهيمن، من مكبّر صوت غليظ يخلو من الحياة :

= الحب أداة تشويش .. النظام يستهدف النقاء الشعوري .. استمر في الانحدار ..

وفجأة، لم تعد الصور تعرض فقط... بل صارت تحيط به، تتداخل، تتكرر، تتسارع...

نور تصرخ، أمه تموت، كاسيان ينزف، نور تصرخ، والده يموت، نور تصرخ...

عيناه لم تعودا تميزان...

جسده يُستنزف...

قلبه يتبعثر في أصداء الألم.

لكنه ... تذكّر.

تذكّر لحظة لقائهما الأول خلف الشلال.

تذكّر نظرتها عندما قالت : (كل شيء قادني إليك) ...

تذكّر أنها كانت المرآة التي رأت ندمه ولم تهرب.

وفي وسط تلك العاصفة، فعل ما لم يُبرمجه أحد على فعله طيلة أكثر من ثلاثين سنة :

ابتسم.

ثم قال :

= أنا أختار الحب ... حتى وإن كنتُ محطمًا ..

الذبذبات الشعورية التي تسجل ، ارتفعت قليلاً، ثم انخفضت فجأة بشكل حاد ..

الأجهزة فشلت في فك الشيفرة.

نما الحب في قلب الياس وفق النسبة الذهبية المقدسة و تشعب في الغرفة ملاحقاً خطوات متوالية فيبوناتشي التي تماهت مع ضربات قلبه الصامد .. هنا أعلن النظام الالكتروني :

فشل تسلسل الانهيار .. مقاومة غير متوقعة .. شعور ما تجاوز معدّل الألم و أجهضه

دوّت صفارات التحذير .. الجدران ارتجّت.

صرخ العقل المهيمن بصوت أقرب إلى الاحتضار :

= كلا .. لن أسمح بذلك .. نصف قرن من هندسة إنسان لا يمكن أن تتبخر في لحظة بسبب شعور وحيد مجهول !!

الشيء الوحيد الذي قهر العقل المهيمن و هندسة الندم هو الشيء الذي تبرأ منه طوال حياته .. **الحب** ..

انطفأت الأنوار...

الغرفة لم تعد تحت السيطرة.

في تلك اللحظة، كانت صورة نور تهتز ... ثم تختفي.

واختفى معها الألم.

أغلق إلياس عينيه وهو يلهث، دموعه تختلط بعرقه... لكنه شعر بشيء يُولد في داخله لأول مرة في حياته :

السلام.

ثم ... الانفجار.

اهتز الجبل ...

الجدران تشققت ...

دخلت الظلال من كل صوب، عناصر ملثّمة يرتدون الأخضر الداكن ..

وفي مقدّمتهم ...

ماركوس.

نزع قناعه، وصاح :

= إلياس .. نور .. نحن هنا ..

كانت حلقة الظل بقيادة ماركوس .. تماماً في الوقت المناسب كما يفعل إله القدر بعبقرية في كل مرة عندما تبلغ الأحداث ذروتها .. اقتحمت الكهف لتعلن الانقلاب النهائي الأخير على الأخوية بعد سنوات من الانشقاق عنها لتنتصر مجدداً فلسفة (آخر العلاج الكيّ) .. فأعدت كميناً لهم في التاريخ المحدد و المكان المعلوم لإجراء التجربة المنتظرة انتقاماً لكل من فقد حياته بسببها و آخرهم كاسيان ..

كاسيان لم يمت...

لقد انطفأ بهدوء كقنديل أنهكته العاصفة بعد أن أنار الطريق لغيره.

اختار الرحيل ليحمي من أحبّ، وكأن حياته كلها كانت مقدّمة لتلك اللحظة.

لم يطلب وداعًا، ولا دمعة، فقط أراد أن يكون ممرا حلزونيا كنسبة مقدسة بين الموت والحياة.

في صمته الأخير، قال كل ما عجز عنه العالم :

أن الحب الحقّ يُقاس بالتضحية.

وسيبقى ظلّه حيًا، لا كذكرى، بل كوصيّة محفورة في قلوب من أنقذهم.

الفصل الحادي و العشرين

قصة حياة ملحمية

كانت الشمس تنسكب على رمال الشواطئ **التايلندية** كما لو أنها تغسلها بنور المغفرة .. أصوات الموج تتعانق مع صدى ناي قديم، فيما عبق الزهور البيضاء يعطّر الهواء كذكرى عذبة لا تزول .. هناك، على تلك الشواطئ الخلابة ، أقيم الحفل.

في باحة معبد صغير تتسلّقه الكروم، وقف إلياس ببدلته الرمادية، وقد انعكست في عينيه كل سنوات الوجع، الندم .. و الغفران .. أمامه، جاءت نور ... بفستان بسيط ينسدل كضوء القمر، وعيناها كأنهما استردتا الهدوء الذي سرقته منهما الحياة.. كان المشهد يشبه لوحة خُلِدت دون أن تذبل ألوانها.

لم يكن زواجهما مجرّد طقس.

كان تتويجًا للحب الذي روّض الندم، الحب الذي أجهض هندسة الندم ذاتها.

ذلك الحب الذي لا تندم عليه، ولا تندم معه.

لم ينقذهما من ماضيهما، بل جعلهما يحتضنانه دون أن يتشظيا تحت وطأته.

لقد أحب كل منهما الآخر رغم الشقوق، وربما بسببها.

لقد خابت نبوءة العقل المهيمن، وانكسرت معادلته المعقدة.

خوارزمية كاسيان لم تكذب، لا لأن الأرقام أصابت، بل لأن الحب تجاوز الرياضيات.

و مع آخر أنفاس النهار .. على الساعة **7:13** تماماً ، وضع كل منهما خاتمه في إصبع الآخر في لحظة فاصلة في حياتهما سيبدأ معها مستقبل جديد تشرق فيه الشمس من حيثما غربت .. يخرج فيها الندم من الدائرة المكسورة ليدخل

الحب عوضاً عنه .. إنها **نيرفانا** من نوع آخر .. عندما يتحرر الإنسان من ندمه أخيراً ..

****

مرت السنوات كحكاية نُسيت صفحاتها الأولى.

كان المساء قد استقر بثقله في الغرفة، ورجل عجوز جلس خلف مكتب خشبي مهترئ، تحيط به رفوف مكدسة بكتب فقدت عناوينها من فرط القراءة.

إلياس ... شعره أصبح رمادياً، ويداه ترتجفان برفق، لكن

عينيه احتفظتا بالشرارة نفسها و هو يرمق صورة غرفة الدير السرية السوداء على الحائط أمامه .. هو لا يعرف بأن حفيده دانييل سيمتلك ذات يوم محل تحف في أزقة روما و يعلق هذه الصورة على الواجهة ليخبر كل من يسأله عنها عن قصة جده الملحمية و حياته السرية ..

أمام آلة كاتبة كلاسيكية، أخذ يضغط على الأزرار، و الحروف تخرج كأنها تهمس بما لم يُقل من قبل.

العنوان :

هندسة الندم

مما كتب :

(كنت طفلًا مسروقًا من قلبه، شُيّدت حياتي مثل غرفة صُممت على أساس الوجع، تتلاعب الأخوية بجدرانها كما

تشاء .. علّموني أن أندم على ما لم أفعله، وعلى ما فُرض عليّ، حتى ظننت أنني لست إلا ظلاً يُعاد تشكيله.

ثم التقيت بها ... نور.

حين أحببتها، لم أهرب من الندم، بل منحني الحب شجاعة البقاء فيه دون أن أُهزم.

اكتشفت أن الإنسان بلا ندم، ليس إنسانًا.

الندم هو الحبر الذي نكتب به مشاعرنا الأكثر صدقًا.

ومن لا يندم، لا يعرف كيف يرحم، ولا كيف يعتذر، ولا كيف يحب.

الندم لا يكسرنا ... بل يصنع أعماقًا فينا تتسع لاحتضان الآخرين.

أما الحب ... فهو المعجزة التي تمنح الندم هدفًا، وتجعله وقودًا للتغيير لا عقوبة.

إن هندسة الندم لم تنهزم بالعقل، بل انكسرت حين احتضن قلبان ماضيهما، وغفرا لنفسيهما، وأحبا برغم كل شيء ، و عندها أزهر الجرح)

و في الجزء الأخير من كتابه أرفق ملحقاً بعنوان :

الخطوات التي يقهر فيها الحب هندسة الندم

تحليل علمي بحت لما جرى معي في حياتي وفق تصور عالمة النفس الفذة زوجتي العزيزة نور حداد التي شاطرتني تجربتي الفريدة مع هندسة الندم ..

الندم ليس لحظة شعور، بل معمارٌ باطنيّ مشيّد بحجارة الإدراك المتأخّر، وأعمدة التحليل الزائد، وسقفٍ من **" لو أنّي "**.. هو فن معماري معقّد يُعاد فيه ترتيب الماضي وفق مقاييس الحاضر، ليُصبح المرء سجينًا في قصرٍ شيده بيديه من الافتراضات والسيناريوهات البديلة .. في هذا الحيّز المضني، تتدخل هندسة الندم كعلمٍ داخلي غير مرئي، يربط بين العصبونات والذكريات، ويُدير كيمياء الذنب والحسرة بإتقان قاتل.

لكن الحب، بتكوينه الفطري والمجهول، يدخل هذا البناء كزلزال هادئ، لا يطرق الباب، بل يهدمه.

فكيف يمكن للحب، وهو أكثر الظواهر تفرّدًا وعصيانًا على التفسير، أن يقهر منظومة هندسية تُعَدّ من أكثر البُنى النفسية تعقيدًا ؟

في الحقيقة هذا يعود لمخمس من الأسباب العلمية العميقة :

أولاً ، الحب يقطع الدائرة العصبية للندم .. فمن منظور علم الأعصاب، يُنشّط الندم مناطق في الدماغ مثل **القشرة الجبهية المدارية** و **النسيج الحُصيني**، وهي المسؤولة عن

استرجاع التجربة وتقييم البدائل.. حين نحب، يُفعَّل **النظام الحوفي** (Limbic System) بقوة، وتُفرز كميات كبيرة من **الأوكسيتوسين و الدوبامين**، وهي ناقلات عصبية تُبطِل بشكل مباشر تأثير دوائر الندم المزمنة.. الحب هنا ليس مجرد عاطفة، بل تدخل بيولوجي طارئ، يُعطّل أنظمة الندم كما يُعطّل فيروسٌ شفرة برنامج مشفر.

ثانياً ، من **منطق التبرير الوجودي: الحب يعيد ترميز الماضي ..** هندسة الندم تقوم على مقارنة بين (**ما حدث**) و (**ما كان يجب أن يحدث**). أما الحب، فيُدخل بُعدًا جديدًا لهذه المقارنة : (**لو لم يحدث ما حدث، لما التقيت بك**). هذا التحوّل في المنطق الداخلي يُعيد ترميز التجارب الماضية لا كأخطاء، بل كممرات ضرورية نحو اللقاء المصيري. هو إعادة كتابة للماضي **بلغة القَدر الجميل** ، لا **بلغة الخطأ القاتل**. في هذا السياق، الحب لا يمحو الندم فحسب، بل يُعيد هندسته ليُصبح سببًا للامتنان.

ثالثاً ، **الحب يمحو الحلقة الذاتية المفرغة** .. فالندم يخلق حلقة مغلقة من التفكير المتكرر، تُعرف علميًا بـ **الاجترار الذهني** (Rumination) ، وهي آلية نفسية تنهك الدماغ وتُغذّي الاكتئاب. حين يدخل الحب، يُعيد توجيه التركيز من الداخل (الذات المنهارة) إلى الخارج (الآخر الذي نحبّه). فينقطع التيار عن دائرة الاجترار، وتتحوّل الطاقة الذهنية من التحليل إلى العطاء، ومن اللوم إلى الحنان. إنه انزياح كامل في محور الإدراك، يُقوّض البنية التكرارية للندم ويستبدلها بجدولٍ جديد من الأولويات العاطفية.

رابعاً ، الحب فعل خلّاق .. فبينما تسعى هندسة الندم لتفسير (**ما فات**) ، الحب يسعى لخلق (**ما سيكون**) .. في كل قبلة، في كل لمسة، نحن نبني مستقبلًا لا يمكن للندم أن يُحاكمه بعد، لأنه لم يُصنع بعد. الحب يُخرج الإنسان من متحف الذكريات إلى ورشة البناء، من المقبرة النفسية إلى حقل الاحتمالات الحية. وهنا، تكمن المعجزة : أن الحب يُغيّر جهة البوصلة الوجودية، من اجترار الزمن الميت، إلى اختراع الزمن الحيّ.

خامساً ، الحب والعفو العصبي أو المصالحة مع الذات .. فأعمق انتصارات الحب أنه لا يُصالحك مع الآخر فحسب، بل يُصالحك مع نسختك القديمة، تلك التي أخطأت .. الحب لا يقول لك :

(أنت لم تخطئ)

بل يقول :

(حتى بخطئك، أنت جدير بأن تُحَب)

وهذه، بحسب علم النفس الإنساني، أقوى آلية شفاء تُمكن للعقل أن يختبرها .. في وجه الندم الذي يُفرّغ القيمة من الذات، يأتي الحب ليملأها من جديد، لا على أساس الإنجاز، بل على أساس القبول غير المشروط.

و في ختام كتابه ذكر الياس :

(الحب علم غير مكتوب .. و رغم أنه عصيّ على التحليل الكامل، إلا أنه يُمارس تأثيره بدقة تفوق أيّ معادلة .. هو

العلم الذي لا يُدرّس، ولكنه يُغيّر كيمياء الروح.

في عالمٍ تُبنى فيه مشاعرنا كمعمار من الندم والخوف والتردد ... يأتي الحب ليقول :

دعنا نهدم هذا القصر ... ونبني كوخًا نعيش فيه معًا

وهكذا، يقهر الحب هندسة الندم، لا لأنه أقوى، بل لأنه أصدق.)

رفع يده عن الآلة الكاتبة، وتأمل الجملة الأخيرة من روايته على الورق الأصفر:

لم نُخلق لنهرب من الماضي، بل لنمنحه معنى

ثم أغلق عينيه، وابتسم **بسلام** .. بعد أن واجه بشعلة النور - تماماً كالنبي الياس - كهنة الأخوية الظلاميين ..

لا ندم بعد الآن ..

هندسة الندم ..

المحتويات :

● الصوت الذي لا صدى له

○ المستقبلة

● عندما يتجمد الوقت

○ عبور العتبة

● القدم الرابعة

○ المتاهة

● القربان

○ مرآة بوجهين

● الممر الحلزوني

○ بلا ندم ... بلا روح

● أخوية النور المكسور

○ المختار الذي لا يختار

● زقاق الأقنعة

○ حلقة الظل

● إلى من خُدع ليوقظ الآخرين

○ شلال المشاعر

● عندما تتقاطع الأقدار

○ ترياق الندم

● تعميد الحبّ

○ نسبة الحب الذهبية

● قصة حياة ملحمية